

## الفصل الأول

### السياسة والمجتمع

١

#### فتح العرب للشام والحقب<sup>(١)</sup> الأولى

##### (١) فتح العرب للشام

تقع الشام في قلب الشرق الأوسط وَسَطَ العالم القديم على أبواب آسيا الغربية وشواطئ البحر المتوسط ، وهي سهل ساحلي يمتد من خليج إسكندرونة في تركيا شمالا إلى طورسيناء جنوبا ، ومن البحر المتوسط غربا إلى بادية الشام شرقا ، والشام بذلك تشمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن . وتجري فيها أنهار صغيرة أهمها العاصي المتجه إلى الشمال في سوريا ، والليطاني المتجه إلى الجنوب ، ويردّي المتجه إلى الشرق مكونا بساتين دمشق المسماة بالغوطة ، ونهر الأردن الذي يصب في البحر الميت ، وفي أطراف الأردن الشمالية بحيرة طَبْرِية . ويجنوبي دمشق هضبة حوران . وفي شمالي الهضبة الشرق منطقة اللجأ وفي جنوبها الشرق جبل الدروز . وتنساب الشام شرقي حوران والأردن في بادية الشام المتممة لصحراء العرب . ومن قديم يُزرعُ بها القمح والزيتون والتين والفواكه ، وبها في الشمال أشجار الثقل المختلفة وهياً ذلك أهلها لكي يعرفوا الاستقرار من أعتق الأزمنة ، كما هياً البلاد لاندفاع بدو الجزيرة العربية إليها ، إذ تفيض عسلا ولبنا . وقد اندفعوا إليها في شكل هجرات كبيرة ، لعل أقدمها هجرة الأموريين إلى شماليها حوالي منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، وتلتها - وربما صحبتها - هجرة الكنعانيين أو الفينيقيين إلى السهل الساحلي . وقد استولى تحوتمس فرعون مصر حوالي سنة ١٤٤٠ ق . م على جزء كبير من الشام ، وظل الأموريون والفينيقيون خاضعين لمصر نحو قرن إلى أن شغلت عن ممتلكاتها في الشام لعهد

نغرى بردى والمغرب ( قسم القسطنطين ) لابن سعيد وتاريخ ابن خلدون وتاريخ الدولة العربية وسقوطها لفلوهوزن وتاريخ العرب - مطول لفيليب حتى ( الترجمة العربية ) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ( نشر دار العلم للملايين ) .

(١) انظر في تاريخ الشام القديم وزمن الدولة الأموية والولاة العباسيين كتاب تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتى ( الترجمة العربية نشر دار الثقافة ببيروت ) وراجع في فتوحها وتاريخها الإسلامي تاريخ الطبري وابن الأثير ، ومروج الذهب للمسعودي والنجوم الزاهرة لابن

إختاتون بسبب ثورته الدينية المعروفة . وتعد على الشام هجرة كبيرة من الجزيرة العربية هي هجرة الآراميين إلى الشام الأوسط ومنطقة دمشق وهجرة العبرانيين إلى فلسطين .

ولم يكوّن الفينيقيون لأنفسهم دولة في السهل الساحلى بل ظلوا جماعات صغيرة لكل جماعة أميرها في طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء وصور وعسقلان وغزة ، وكانوا شعبا بحريا تجاريا ، وازدهرت تجارتهم بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد ، وكوّنوا لهم مستعمرات في إسبانيا ومراكز تجارية في كورسيكا وسردينيا وصقلية وكريت وساموس في اليونان . وقضى على النشاط التجارى لهذا الشعب الفتح الأشورى في القرن الثامن قبل الميلاد . وكون العبرانيون لأنفسهم مملكة أورشليم في القرن العاشر ق . م . وفيه بلغت ذروتها لعهد داود وسليمان ، ثم أخذت في الضعف حتى قضى عليها الأشوريون في القرن الثامن ق . م . ودمر بختنصر أورشليم في القرن السادس ق . م . وجلاهم عنها إلى بابل ، حتى إذا سقطت دولة بابل سنة ٥٣٩ ق . م . أذن كورش لمن يريد منهم العودة إلى أورشليم أن يعود . وظل الشام منذ هذا التاريخ تابعا للدولة الفارسية إلى أن فتحه الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٤ ق . م . وتولّت بعده شئونه دولة السلوقيين اليونانية حتى انتزعه منها الرومان في القرن الأول ق . م . ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية كان الشام من نصيب الامبراطورية الشرقية وظل تابعا لبيزنطة حتى استخلصه العرب منها .

وقد استطاع العرب الشماليون أن يقيموا مملكتين أو إمارتين لهم في أطراف الشام : إمارة البسط في شرق الأردن أقاموها منذ القرن الثالث ق . م وكان لها عاصمتان : بَطْرًا في الجنوب بشرق الأردن وْبُصْرَى في الشمال بالقرب من دمشق ، وكانت تتكلم العربية في أحاديثها اليومية بينما كانت تكتب نقوشها بالخط الآرامى ، وقضى الرومان على استقلالها سنة ١٠٦ للميلاد وضموها إلى دولتهم الرومانية . والمملكة الثانية مملكة تدمر شمالى بادية الشام ، وبلغت أوجها في القرنين الثاني والثالث للميلاد وخاصة في عهد أميرها أذينة ، وقد نصبه الرومان ملكا على سوريا جميعها وعادوا في عهد زوجته الزبابة ، فقصوا عليها وعلى الإمارة في سنة ٢٧٣ للميلاد . ولم تلبث قبيلة عربية أن شَقَّت طريقها إلى منطقة حوران جنوبى دمشق ، وهى قبيلة الغساسنة واستطاعت أن تقيم لها إمارة ، ولم تكن لها عاصمة مستقرة ، فقد كانت تنتقل من مكان إلى آخر ، فرة تتخذ عاصمتها في الجولان ومرة في جَلَّتْ أو الجباية ، وكانت موالية لبيزنطة وتحارب في صفوفها ضد إيران وعرب الحيرة . ومن أهم أمرائها الحارث بن جبلة وهزيمته للمنذر صاحب الحيرة يوم حليمة بالقرب من قَسْرَيْن سنة ٥٥٤ مشهورة وفيها خَرَّ المنذر صريعا . وما نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادى

حتى تتمزق وحدة هذه الإمارة ، ويتوزع أجزاءها غير أمير . ونستطيع أن نميز بينهم النعمان بن الحارث ممدوح النابغة وأخاه عمرو ممدوح حسان ، ولحق منهم الفتوح الإسلامية جبلة بن الأيهم وأسلم ، ثم تنصر ولحق ببيزنطة .

وحين دخلت الجزيرة العربية جميعها في دين الله الخفيف وانضوت تحت لوائه أحست دولة بيزنطة في الشام ودولة الفرس في العراق بأنها قوة ينبغي أن يُدْرَأَ خطرُها . وهو ماجعل أبا بكر الصديق يبادر بتجهيز الجيوش لتجاهد في سبيل الله ونشر دعوة الإسلام الدولتين الكبيرتين قبل أن تتآزرا على حرب الإسلام والمسلمين في الجزيرة شرقا وشمالا . وكان الفساد قد استشرى في حكم الدولتين واستشرى معه ظلم الرعية والبغى الأثيم . واستولى المسلمون من الفرس سريعا على جنوبي العراق ، وتوالت انتصاراتهم عليهم ، وبادر الصديق فسّر في سنة اثنتي عشرة للهجرة جيشين لحرب البيزنطيين أو الروم في الشام : جيشا بقيادة يزيد بن أبي سفيان إلى البلقاء في شرق الأردن ، وجيشا بقيادة عمرو بن العاص إلى الجنوب الشرقى من فلسطين ، وكتب إلى خالد بن الوليد في العراق أن يلحق بجيشي الشام ، فلحق بها وتولى قيادتها ، وفتح بصرى شمالى البلقاء . ونازل الروم في أجنادين بفلسطين بين بلدتي الرملة وبيت جبرين الحاليتين ، وهى أول معركة كبرى بين العرب والروم ، وفيها سحقهم سحقا ذريعا ، وتقدم إلى الشمال حتى دمشق وظل محاصرا لها حتى استسلمت . وجمع الروم صفوفهم في اليرموك أحد روافد نهر الأردن فدمرهم خالد وجنوده ولم تقم لهم بعد ذلك في الشام قائمة وفتحت بلدانها جميعا أبوابها للعرب المنتصرين . وبذلك استولى العرب على الشام في نحو ستين .

وخرج عمر بن الخطاب في سنة ١٦ إلى الحجابة - جنوبي دمشق على مسيرة يوم منها - وهى إحدى عواصم الفساسنة كما مر آنفا ، وبها عقد مؤتمرا ضمّ ولاية الشام وقوادها لتنظيم الإدارة في ديارها ، وفتحت له القدس أبوابها ، وأمن عمر النصارى بها ورهبانها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وحرمتهم الدينية ، والتسموا منه أن يُخلَى القدس من اليهود وأجاب ملتسهم ولم يبق بها يهودى . وقسم الشام إلى أربعة أجناد : جند الأردن وجند فلسطين وجند دمشق وجند حمص ، وزيد فيها بعد لعهد الأمويين جند قنسرين والعواصم والثغور . واشتهرت سنة ١٨ للهجرة باسم سنة طاعون عمواس ، وكانت بلدة بين نابلس والرملة الحاليتين ، وفيه توفى أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ ابن جبل ويزيد بن أبي سفيان وإلى دمشق ، وولاهها عمر بن الخطاب بعده أخاه معاوية . وامند لواء ولايته لها في عهد عثمان حتى شمل الشام ، وعمل على الاستعانة بيدو الشام في

شئون الإدارة مما جعلهم يلتفون حوله ، وظهر ذلك سريعا حين تولى الخلافة على بن أبي طالب ، وعزله ، فإنه سرعان ما طالب بدم عثمان وناصره بدو الشام .

وتطورت الظروف سريعا إلى أن نشبت حرب صيفين بين معاوية وبين على بن أبي طالب كما هو معروف ، حتى إذا أيقن معاوية بالهزيمة أمر جنده - استجابة لمشورة عمرو بن العاص - أن يرفعوا المصحف على أسنة رماحهم داعين إلى الاحتكام إلى كتاب الله . ورضى على وأقيم حكمان للفصل بين الطرفين : أما جند على العراقيون ، فاختاروا أبا موسى الأشعري ، واختار معاوية وجند الشام عمرو بن العاص ، ويروى الجاحظ أن معاوية قال له : « يا عمرو إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضُمنَّ إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي فأجد الحزَّ وطبَّق المَقْصِل ، ولاتلقه برأيك كله » . وصدق حَدْس معاوية فقد استطاع عمرو أن يقنع أبا موسى بعزل على عن الخلافة لوقف الحرب وحقق دماء المسلمين . وأعلن الحكم ، وانقسم جيش على : فرقة معه وفرقة سَمَّتْ أنفسها الخوارج ، وهو أول ظهورهم في التاريخ الإسلامي وحاربهم ونكَّل بهم ، ولم يلبث أن اغتاله خارجي أثيم . وبذلك خلا الجو لمعاوية وخاصة حين أعلن الحسن بن على تنازله عن الخلافة له . وقد بايعه جنده وأمرأؤه بالخلافة في بيت المقدس واتخذ دمشق حاضرة لخلافته .

### (ب) زمن الدولة الأموية

أسس معاوية في الشام الدولة الأموية وتوزعها فرعان : فرع سفياني نسبة إلى أبي سفيان ، معاوية على رأسه وابنه يزيد ، وفرع مرواني من البيت الأموي نسبة إلى مروان بن الحكم ومن خلفه من أبنائه وأحفاده . وكان معاوية بعيد النظر سيوسا حازما ، وكان له بصير بالشخصيات من حوله ، فاستعان بطائفة من صفوة الحكام في مقدمتهم عمرو بن العاص في مصر ، والمغيرة بن شعبة الذي ولاه الكوفة ، وزيايد بن أبيه الذي اختاره للبصرة وإيران حتى إذا توفى المغيرة ضم إليه الكوفة وقد استطاع زيايد أن يقضى على معارضة على في شرقي الدولة وأن ينشر في ربوعه الأمن . ووجه معاوية حملات مختلفة إلى بيزنطة واستطاع حصار القسطنطينية مرتين ووجه حملة بحرية إلى قبرس ، وكانت دمشق قاعدة الخلافة في زمنه وكان يستعين بأهل الشام في شؤون الحكم وعمها الرخاء . وشمل المسيحيين بتسامح واسع واتخذ لنفسه مستشارا ماليا منهم هو سرجيوس ، إذ وكل إليه فيما يقال الشؤون المالية . ويبدو أنه كان حاكما لدمشق قبل فتحها . على كل حال استعان به

معاوية في الشؤون المالية لدمشق ، وظلت أسرته بعده في خدمة الأمويين فكان ابنه يشرف على الخراج لعهد عبد الملك ، وبالمثل استعان الأمويون بخفيده ، وفي عهده توغل عقبة بن نافع - ابن خالة عمرو بن العاص - في البلاد المغربية ، وأسس في وسطها القيروان بتونس ، وواصل فتوحه في عهد معاوية وابنه يزيد حتى أشرف على المحيط الأطلسي .

ولما خلف معاوية ابنه يزيد أبى البيعة له عبد الله بن الزبير ولاذ بالحرم المكي ، كما أباهما الحسين ابن علي واتجه إلى العراق ، فلقبته طلائع جيش لعبيد الله بن زياد والى العراق قبيل دخوله الكوفة في « كربلاء » غرني الفرات ولما أتى الاستسلام نازلوه واستشهد الحسين ومن كان معه من أهله وأنصاره مما كان له أكبر الأثر في التطور السريع للشعبة ، ولا يخلو صريحه طوال العام من حُبِّ أجهم إليه حتى اليوم . وكانت المدينة قد انضمت إلى ابن الزبير فأرسل يزيد إليها جيشا بقيادة مسلم بن عقبة فنكل . بها وفي طريقه إلى مكة لحرب ابن الزبير توفى وخلفه حصين بن نمير السكوني ، فضى حتى حاصر ابن الزبير بمكة وجاءه نعي يزيد بن معاوية ، ففك عنها الحصار وعاد بجنده إلى الشام . وخلف يزيد ابنه معاوية وتوفى بعد أربعين يوما من خلافته . واضطرت العراق ، واضطر واليها عبيد الله بن زياد إلى مبارحتها ، وانتهز الفرصة مروان بن الحكم واعتلى عرش الخلافة يؤيده بدو الشام من اليمنية وأبى بدوها من القيسية مبايعته وهزمهم في موقعة مَرَج راهط ، وتبعته مصر ، أما العراق فظل الاضطراب سائدا فيها ، وبايع قسم منها ابن الزبير وقسم تحرك للطلب بدم الحسين وكان عبيد الله بن زياد فكري العودة إلى العراق على رأس جيش قضى عليه هذا القسم ، وحاول المختار الثقفي والى الكوفة أن يجمعه تحت لوائه وقضى عليه مصعب بن الزبير والى أخيه عبد الله على البصرة .

وكان مروان بن الحكم قد توفى وخلفه ابنه عبد الملك وسر سرورا عظيما لما حاق بالمختار الثقفي وجنوده على يد مصعب ، وأخذ يتحين الفرص للقضاء عليه في العراق وعلى أخيه عبد الله بن الزبير في مكة والحجاز ، أما مصعب فذهب إليه عبد الملك في سنة ٧١ للهجرة على رأس جيش ضخم ، وقضى عليه ، وبايعه العراقيون . وأما عبد الله بن الزبير فأرسل إليه الحجاج في جيش كثيف ، وما زال به حتى تفرق عنه أصحابه ، وظل يستبسل في قتال القوم حتى خر صريعا . وقد عُني ببناء المسجد الأقصى وتعريب إدارة الدولة واستطاع أخوه عبد العزيز واليه على مصر أن يقضى نهائيا على المعارضة في المغرب .

ويُعدّ زمن الوليد بن عبد الملك أزهى أيام المرانيين لفتوحاته العظيمة شرقا وغربا ، أما في

الشرق فاستطاع محمد بن القاسم فتح السند واستطاع قتيبة بن مسلم أن يمتد بانتصاراته إلى الإقليم المسمى الآن باسم أوزبكستان وعاصمته حينذاك سمرقند . وأما في الغرب فقد استطاع موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد أن يقضيا على الدولة القوطية في إسبانيا ، وأن يلبغا بفتحها هناك أصى الشما . وهذه الفتوح كانت تعود على الدولة بأموال عظيمة مم هيا لرخاء واسع في ديار الشام ، كما هيا للوليد نفسه أن يهتم في دمشق بالعمران وأن يقيم بها الجامع الأموى العظيم ويقال إنه عمل به من البيزنطيين وخدمهم ألف ومائتا عامل سوى من عمل به من الفرس وأهل الشام وقد زينت جدرانها وسقوفه بالرخام المطعم والفُسَيْفَسَاء التي كانت تمثل مدنا وأشجارا من كل نوع سوى ما كان فيه من أعمدة وتراويق عجيبة .

وخلف الوليد أخوه سليمان واتخذ بلدة الرملة بفلسطين حاضرة له . وكان من سوء تدبيره أن نكّل بقواد الوليد العظام ، فقتل قتيبة ولم يعرف مصير موسى بن نصير ولا محمد بن القاسم ، وحسنه الوحيدة انه استخلف بعده ابن عمه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وقد ألغى سبباً على بن أبي طالب على المناير وعمل على استمالة الشيعة والخوارج والنصارى وخفف من ضرائب الجزية المفروضة على الأخيرين في قبرس وأيلة ( العقبة ) ونجران ومصر ، وسوى بين العرب والموالى في الضرائب وأعطى منها المشتركين منهم في حرب خراسان مع فرض أعطيات لهم ، غير أن حكمه كان قصيرا من سنة ٩٩ إلى ١٠١ . ولم يأخذ خلفاؤه بإصلاحاته ، وعجل ذلك باضمحلال الدولة . وأولهم بعده يزيد بن عبد الملك الذى لم يأخذ بسيرته وإصلاحاته وانغمس في الملاهى ، وتلاه بعد نحو أربع سنوات أخوه هشام الذى اتخذ مقره في الرصافة على الفرات ، وفي عهده ثار زيد بن على بن الحسين في الكوفة سنة ١٢١ وقتل وصلب ، واستغل ذلك دعاة العباسيين مما مهد السبيل لقيام خلافتهم بعد نحو عشر سنوات . ومضى عرب الأندلس بهزيمتهم جنوى فرنسا سنة ١١٤ للهجرة أمام شارل مارتل .

وتوفى هشام سنة ١٢٤ وخلفه عهد تضعضعت فيه الدولة الأموية وآذنت شمسها بالمغيب ، فقد خلفه ابن أخيه الوليد بن يزيد وكان شاعرا ماجنا فلقى مصرعه سريعا ، وجاء بعده يزيد بن الوليد وسرعان ماتوفى بعد خلافته بنحو خمسة أشهر وتلاه أخوه إبراهيم ولم يرضه الناس ولا الأسرة الأموية ، وتحولت مقاليد الخلافة إلى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وكأنه لم يعد في أسرة عبد الملك من يصلح لها . وكان محاربا على الهمة ، وأخطأ بنقله عاصمة الخلافة إلى حران ، فانفض عنه بدو الشام ، ونشبت فتن كثيرة أضعفت قواه ، بعضها في الشام وبعضها في

العراق حيث الخوارج والشيعية . ولم تكند هذه الفتن تهدأ حتى تحرك العباسيون براياتهم السود من خراسان ، وأخذت المدن الإيرانية تسقط في أيديهم ودخلوا العراق واستولوا على الكوفة ومضوا إلى شمال العراق وهزموا مروان عند الزاب الأكبر ، فأخلى الجزيرة واتجه إلى الشام وتخلّى عنه أهلها ، فالتجأ إلى مصر ، ولقى مصرعه بها في بوصير . وكان السفاح قد أعلن الخلافة العباسية في الكوفة وطورد الأمويون في كل مكان وأيدوا بوحشية ، ونُبِشت قبور خلفائهم - عدا معاوية وعمر بن عبدالعزيز - وأُذريت عظامهم ورفاتهم في الهواء ، ونجا من هذا البطش والنكال عبدالرحمن الداخل أحد حفدة هشام بن عبدالملك ، إذ فرّ إلى الأندلس وأسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثة قرون .

### (ج) زمن الولاة العباسيين

فقدت الشام - بسقوط الدولة الأموية - السيادة المطلقة في الإسلام وفقدتها العرب معهم تدريجاً . إذ أخذ الاعاجم يشغلون المناصب العليا في الدولة العباسية ، وكان العباسيون يعرفون أن دولتهم إنما قامت على أسنة رماحهم ، فقربوهم منهم وفسحوا لهم في الوزارة وغير الوزارة . وكان لذلك صداه السيئ في نفوس أهل الشام ، مما هيأ بعد نحو عشرين عاما لثورة القيسية في قنسرين بزعامة أموى هو أبو محمد السفيناني ، وسرعان ما قضى عليها العباسيون وفرّ السفيناني إلى الحجاز ولقى حتفه هناك ، ولم يصدق أتباعه وفاته فظلوا يترقبون عودته ليجدد للشام مجده الغابر .

وتمضى إلى سنة ١٩٥ في عهد الخليفة الأمين فيظهر في دمشق سفيناني جديد هو على بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفينان ، ويطرد عامل الأمين عن دمشق ، ويبايعه الدمشقيون بالخلافة . وشغل عنه الأمين بحرب أخيه المأمون مدة . ولم يلبث أن قضى على ثورته . أعوان الأمين واختفى بالهجرة بالقرب من دمشق وأقام بها أياما ومات . وفي سنة ٢٢٧ لعهد المعتصم ثار بفلسطين المبرقع أبو حرب اليماني وزعم أنه السفيناني المنتظر ودعا أولا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن قويت شوكة فادّعى النبوة ، وتبعه قوم من فلاحى القرى وقوى أمره وسار إليه أحد قواد المعتصم في ألف فارس وأسره وحجسه ومات في حبسه .

وكان أول من تولى الشام للسفاح عمه عبدالله بن على بعد قضائه على مروان بن محمد في موقعة الزاب حتى إذا فرّ مروان إلى الشام مضى يتبعه إلى دمشق ففتحها وهدم سورها وقتل من الأمويين ثمانين رجلا في مذبح مشهورة ببلدة الرملة . وولاه السفاح دمشق ، ولما ولى الخلافة بعده

أبو جعفر المنصور ، خرج عليه عبدالله ودعا لنفسه فهزمه أبو مسلم الخراساني ، وحسبه المنصور ومات في حبسه . وتولى أمر الشام ودمشق بعد عبد الله كثير من الولاة وكان بعضهم من الأعاجم مؤيدى الدولة . واتبع العباسيون سياسة غير حكيمة أن لا يبقوا واليًا لهم في بلد إلا مدة قصيرة . وكان هذا سببا في أن لا يُعنى الولاة بالتهوض ببلدانهم من جهة ، كما كان سببا في أن يحاولوا الإثراء سريعا قبل أن يُعزلوا من مناصبهم ، مما كان يدفعهم في كثير من الأحيان إلى الزيادة في الضرائب ، كما كان يدفع الناس إلى الثورة عليهم ، وسرعان ما كان يقضى على ثوراتهم كما حدث في حلب سنة ١٦٢ وفي حمص سنة ١٩٤ .

ويبدو أن القبائل القيسية والجنية لم تتعظ بما أصابها من فقدان موطنها لاستقلاله الذاتي ، فقد اندلعت بينها نار العصية القديمة وأخذوا يمدونها بحطب جَزَلٍ طوال العقد الثامن من القرن الثاني ، واغتنت السوق بدمشق الفرصة فنهبت ما استطاعت أيديها نهبه ، وتطاحن الفريقان وسُفكت دماء المئات منها . وأخيرا أرسل إليها هرون الرشيد وزيره جعفرًا البرمكي ، فأطفأ نار العصية المحتدمة بين الطرفين بتجريدتهما من السلاح وعاد إلى دمشق الهدوء والسلام . وفي سنة ٢٢٧ يولى المعتصم موسى بن إبراهيم الرافقي دمشق فتثور عليه القيسية ويقتل منها خمسة عشر نفسا ، فتشتد ثورتها وتحاصر دمشق ، ويتوفى المعتصم فيرسل الواثق خلفا له أحد قواده فيهزم القيسية ويقتل منها ألفا وخمسمائة ، وتهدأ الثورة ، ويعود الأمن إلى دمشق .

وكان الخلفاء العباسيون يرحلون إلى الشام أحيانا ، لزيارة بيت المقدس أو للحج منه ، وأكثر رحلاتهم إنما كانت لحرب البيزنطيين ، والسقوط عليهم من ثغوره . ومما يذكر لهم أنهم أقاموا في حدوده الشمالية كثيرا من الثغور للاندفاع منها إلى آسيا الصغرى . وكانت جيوشهم مائتي ذاهبة إلى شمالي الشام آية منه ، مما عاد عليه بكثير من الرخاء وانتعاش التجارة . واشتهر المهدي والرشيد بنضالهما لبيزنطة وما كان من فتح هرقله وضرب البيزنطيين ضربات قاصمة . وأخذ المأمون منذ سنة ٢١٥ يقود حملات عنيفة لمدة ثلاث سنوات متوالية استولى في أثناءها على لؤلؤة أقوى وأمنع الحصون البيزنطية بالقرب من طرسوس ، مما اضطر تيوفيل إمبراطور بيزنطة إلى التماس الصلح . وفي سنة ٢٢٣ دق المعتصم وقواده أعناق البيزنطيين دَقًّا وأوطئوهم ذُلًّا وصَغَارًا إذ هدموا أنقرة وحرقوا عمُورية أَمْنَع بلادهم في آسيا الصغرى . وظل قواده من أمثال محمد بن يوسف الثغرى وابنه يوسف يَكِيلون لهم ضربات ساحقة . ويظل غزو البيزنطيين صيفا في أيام الخليفة المتوكل ، ويعيرون على بعض الثغور في شمالي الشام . وينكل بهم على بن يحيى الأرمني والفارس المغوار عمر

ابن عبدالله الأقطع ، ويتم فتح صقلية ، ويدمر أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول البيزنطيين . وزار المتوكل الشام في آخر سنة ٢٤٣ ودخل دمشق وأعجبه ، وبنى له قصرًا بالغوطة وعزم على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها . ويفطن قواده من الترك إلى مأربه ، وأنه يريد التخلص منهم ، فطالبوا بروايتهم حتى يضطروه إلى العودة إلى سأمراء عاصمته في العراق . ونزل على إرادتهم ، وبارح دمشق سريعًا . وربما كان من أهم ما خلفه عصر الولاة العباسيين بالشام كثرة العناصر الفارسية التي دخلته بين ولاة وقضاة وعلماء وفقهاء مختلفين .

### ( ٥ ) الطولونيون - القرامطة

#### ١- الطولونيون<sup>(١)</sup>

كان أحمد بن طولون تركي الأصل خدم العباسيين وولى مصر فأنشأ بها الدولة الطولونية محققا لها نوعا من الاستقلال الذاتي ، وكان قد ولي إمرة الثغور وجاهد في سبيل الله . ويقول مؤرخوه إنه نشأ يُعنى بالفقه مع كثرة الدرس وطلب العلم ، وكان يقول : ينبغي للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه وسماحته على من يقصده ويشتمل عليه ، فإنه يملكهم ملكا لا يزول به عن قلوبهم ، وقد غم الرخاء مصر منذ وليها في سنة ٢٥٤ ويقال إنه كان يتصدق في كل يوم بمائة دينار غير ما كان يرسله إلى الشام والعراق والحجاز . ومنذ توليه مصر وضع نصب عينيه الاستيلاء على الشام ، ولم يكن ذلك غائبا عن فكر الموفق القائم على تدبير دولة أخيه المعتمد ، غير أنه كان مشغولا بثورة الزنج والقضاء عليها ، وانتهز ابن طولون الفرصة بعد موت والي دمشق سنة ٢٦٤ وأتاب عنه بها مولاة لؤلؤًا ولم يلبث في سنة ٢٦٨ أن أظهر الخلاف عليه وضرب نقودا باسمه وكاتب الموفق ليرسل إليه جيشًا يفتح به مصر . وخشى ابن طولون أن يهم الموفق بتلييته ، فأرسل إلى الخليفة المعتمد وكان كالحجور عليه يرغبه في الرحيل إليه بمصر ، وتوجه إلى سوريا كى يكون في استقباله . وعزم المعتمد على اللحاق به وتنبه الموفق ، فحال بينه وبين الرحيل عن العراق . ومضى ابن طولون يغاضب الموفق فقطع اسمه من الخطبة يوم الجمعة بمصر والشام إذ كان يُذكر فيها وليا

(١) الإسلامية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٠.

(١) راجع في هذه الدولة كتب التاريخ السالفة في أول الفصل وسيرة أحمد بن طولون للبلوي ودائرة المعارف

للعهد ، ولم يردّ على ذلك الموفق إذ كان يميل معه إلى السلام ، ولذلك لم يرسل إلى لؤلؤ جيشاً لغزو مصر . وعادت الشام إلى ابن طولون سريعا .

وكان عهد ابن طولون في الشام عهد رخاء وأمن ، ويقال إنه أول دخول له في دمشق وقع بها حريق ، فأمر بأن يعطى لكل من احترق له شيء من المال ما يعوّضه ، ثم أمر بمال عظيم ففرّق في فقراء دمشق والغوطة . وتوفي سنة ٢٧٠ فخلفه ابنه خنارويه ، وثار عليه واليه على دمشق وولاية آخرون هناك . وأيدهم الموفق بجيش ، فبنى خنارويه بالهزيمة ، وتتابعت هزيمته في سنتي ٢٧١ و٢٧٢ . وأخذ نجسه في الصعود لسنة ٢٧٣ إذ كتب إلى الموفق في الصلح فأجابته ، وكتب له بولايته على مصر والشام والثغور لمدة ثلاثين سنة . وسرّ خنارويه سرورا عظيما ، وأمر بإعادة الدعاء للموفق في خطبة الجمعة ، وكان يتردد على الشام يجيشه الضخم كثيرا ، مما كان يعود على أهلها برواج واسع في التجارة . وبدمشق قتله خادم له في قصره سنة ٢٨٢ ويقال إن هذا الخادم كان أولع بجارية له فتهدها خنارويه بالقتل فاتفقت مع الخادم على قتله . وسرعان ما أخذت شمس الدولة الطولونية في الغروب ، وولى بعده ابنه « أبو العساكر جيش » وعكف على الشرب واللهو فنفر القواد - ونفرت الناس - منه . وخلعه أخوه هرون بعد ولايته بتسعة أشه ، وكان لا يزال صيبا ضعيفا ، فأخذت الدولة في التضعف ، وعاث القرامطة فسادا في الشام ، ولم يستطع قواده وجنوده أن يردوهم عن دمشق وغيرها فاستغاث أهل الشام بجيوش الخليفة المكتفي وأغاثنهم . ووضح أنه لم يعد يوجد أى مسوغ للإبقاء على الأمير الطولوني المستضعف ، وخلفه عمه شيبان وكان لا يقل عنه ضعفا ، ومنه تسلم مصر محمد بن سليمان سنة ٢٩٢ .

## ٢ - القرامطة (١)

كان أول ظهور القرامطة في العراق سنة ٢٧٧ ، وهي حركة سياسية دينية خطيرة تحدّثنا عنها بالتفصيل في كتابنا العصر العباسي الثاني ، وأوضحنا كيف بدأت بإيحاء من عبد الله بن ميمون

ص ١٢٦ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان

ص ٢٢٩ وكتابنا العصر العباسي الثاني ص ٣٣ وما بعدها .

(١) انظر في القرامطة كتب التاريخ وخاصة الطبرى ،

وكتب الملل والنحل وخاصة الفرق بين الفرق للبغدادي ،

ودراسات في العصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز الدوري

القدّاح منظم الدعوة الإسماعيلية الشيعية من مركزه في « سَلْمِيَّة » بالقرب من اللاذقية . وكيف أنه أرسل دعاته إلى العراق وخاصة الكوفة وسوادها وعلى رأسهم الحسين الأهوازي ، وقد التقى في السواد بنطلي يلقب بقرمط ووجد فيه أمنيته من التحمس الشديد للدعوة . ولما دنا أجله عهد إليه بها فنظمها . وتبعه كثيرون مكونين فرقة القرامطة نسبة إليه ، وسرعان ما تحولت الفرقة إلى فرقة مارقة تُحلُّ أتباعها من الفرائض الدينية وتفرض عليهم نظاما اشتراكيا في الأموال . وانضم إلى قرمط قليل من الطبقة الكادحة لا في السواد والريف فقط بل أيضا في المدن ، ومن أهم أتباعه الحسين بن جهرام الجنابي الفارسي الذي نشر الدعوة في البحرين والأحساء . ويخلفه في سنة ٢٨٩ زكرويه القرمطي وكان أكثر نشاطا من قرمط ، فرأى أن يعنى بنشر الدعوة بين البدو في جنوبي العراق ولم يتبعه إلا القليل ، حينئذ أرسل أولاده يحيى والحسين ومحمدا إلى عشائر قبيلة كلب في بادية الشام وزعموا لها أنهم من سلالة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتبعهم كثيرون وخاصة بني العَلَيْص . وكانوا قد جعلوا زعامتهم لأخيهم يحيى فبايعه البدو وكانت له عضد ناقصة فكشفها لهم وقال إن هذه آية . وآية له ثانية هي ناقته ، وزعم أنهم إذا تبعوها في لقاء عدو كُتِب لهم النصر المبين . وساق جموعه في الشام يعثون ويفسدون ، وحاصر بهم دمشق فقتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة له ، وأظهر لهم شامة في وجهه المثلث وقال إنها آية ، ولذلك لُقِب صاحب الشامة . وخافه أهل دمشق فصالحوه على خراج يؤدونه إليه . وتغلب على حمص وخطب على منابرها بأنه المهدي المنتظر ، وهاجمت جموعه بعلبك وحماة والمعرة تقتل وتنهب . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية كما مر بنا ، وكانت تعانى ضعفا شديدا ، فلم تستطع أن تنفذ الشام من القرامطة وما أحدثوه بها من الفوضى والدمار ، مما جعل أهل الشام يستغيثون منهم بالخليفة المكتفى ، ولجى استغاثتهم فأرسل إليهم محمد بن سليمان على رأس جيش كثيف ، فواقع القرامطة بالقرب من حماة في المحرم سنة ٢٩١ وأنزل بهم هزيمة ساحقة ، وفرَّ كثيرون منهم إلى البوادي . أما الحسين بن زكرويه فاتجه إلى الفرات . وأسر هناك وُصِّل ببغداد مع عشرات من القرامطة . وكان أخوه محمد لا يزال حيا بين بدو الشام ، فأخذ في جمعهم حوله ، حتى إذا كانت سنة ٢٩٣ أغار بهم على دمشق وحارب أهلها ودخلها وأعمل فيها القتل والنهب ، ثم صار إلى طبرية فانتصر على أهلها ودخلها وفتك بكثير من رجالها ونسائها وعاد إلى البادية . وفي نفس السنة أرسل زكرويه داعية له يسمى أبا غانم إلى بادية الشام ، وتبعه كثيرون ونهب بهم بصرى وأذرعات ، وتعقبت جنود الخلافة ولم يلبث أحد أتباعه أن قتله . وبذلك تنتهى حركة



ابن الإخشيد وكافور ولم يلبث على أن توفي سنة ٣٥٥ وتولى أمر الدولة في مصر والشام بعده كافور الحبشي باتفاق من أعيان مصر وجندها . وكان الإخشيد اشتراه من بعض رؤساء مصر وأعتقه ورفّاه حتى جعله من كبار قواده لما رأى فيه من الحزم وحسن التدبير ، وكان شجاعاً مقداماً . وظلت ولايته على مصر والشام إلى وفاته في جمادى الأولى سنة ٣٥٧ وتولّى بعده على بن أحمد بن الإخشيد، وكان صبيها، واضطربت أحوال الشام في عهده اضطراباً شديداً بسبب غارات القرامطة المتكررة وما كان يصحبها من الفوضى والنهب والسلب. وسرعان ما سقطت مصر في يد الفاطميين لسنة ٣٥٨ وبذلك انقرضت دولة الإخشيديين.

#### ٢ - الحمدانيون<sup>(١)</sup> (سيف الدولة)

منذ أواخر القرن الثالث الهجري أخذ يتألق اسم أسرة تغلبية عربية هي الأسرة الحمدانية ، وقد استطاع مؤسسها حمدان في سنة ٢٧٧ أن يستولى على قلعة ماردين في الموصل ، وأخذت أسماء أبنائه وأحفاده تلمع في أحداث الخلافة المضطربة ، ولمع من بنيه مبكراً اسم أبي الهيجاء لاستيلائه على مدينة الموصل سنة ٢٩٣ وظلت في يده ويد ابنه ناصر الدولة وحفيده أبي تغلب المتوفى سنة ٣٦٩ . وقد استطاع ابنه على الملقب بسيف الدولة أن يستولى من الدولة الإخشيدية على حلب وحمص واللاذقية وأنطاكية وأسس فيها جميعاً إمارة مستقلة منذ سنة ٣٣٣ للهجرة متخذاً حلب عاصمة له . وحاول الاستيلاء على دمشق من الإخشيد - كما مرنا - غير أن المصريين ردوه على أعقابهم فاكتفى بإمارته . وتذب نفسه لمهمة عظيمة طالما هيأ نفسه لها منذ شبابه ، وهي النهوض بعبء الحرب ضد الروم البيزنطيين . وكان أول لقاء له معهم في سنة ٣٣٦ إذ أغاروا على أطراف الشام ونهبوا وسبوا فلاحق بهم وأذاقهم نكالا شديداً ، وردّ منهم كل ما سلبوه من أهل الشام . ويُكْتَبُ له منذ السنة التالية مجد حربي عظيم ضد الروم ، ويسجله له لوحات شعرية ناطقة بالتنبي الذي نزل بلاطه حينئذ ، ولزمه حتى سنة ٣٤٦ يسجل ويصور ملاحمه الحربية الساحقة للروم سحقاً ذريعاً .

سامي الدهان) وراجع التيمة للتعالي ١٥/١ ومابعدها  
ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع في الحمدانيين  
وسيف الدولة

(١) انظر في الأسرة الحمدانية وسيف الدولة كتب التاريخ  
السالفة والجزء الأول من زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن  
الديم ( طبع المعهد الفرنسي بدمشق - تحقيق الدكتور محمد

ومضى البطل الحمداني يدير مع الروم معارك باسلة كان ينصبُّ عليهم فيها سنويا كإعصار محرق مدمر ، وشاعره المتنبي من ورائه يتغنى بانتصاراته وبخوارقه البطولية حين تلم به كارثة ، إذ يتخلص منها في شجاعة نادرة . ومن أعظم بطولاته أنه كان يبني الحصون في أثناء نزاله للروم على نحو ما صنع بحصن مرّعش في سنة ٣٤١ وهو يكيّل لهم ضربات قاصمة . وقد أنزل بهم صواعق الموت التي لا تبق ولا تدر في سنة ٣٤٢ وأسر قسطنطين بن الدمستق وساقه بين يديه في دخوله حلب مظفراً منصوراً . وفي سنة ٣٤٣ جمع الروم له حشوداً هائلة من الترك والروس والبلغار والخزر بقيادة الدمستق ، وسرعان ما أخذ يدق أعناقهم دقا ، وهرب الدمستق على وجهه لايلوى ، وأسر صهره بينما كان البطارقة يقتلون ويؤسرون ، وأخذ سيف الدولة عسكرهم بكل ما فيه . وسيف الدولة في أثناء هذه المعركة ووطيسها المستعربي حصن الحدث شمالي مرعش والمسلمون يكبرون ويهتلون . وفي سنة ٣٤٥ أنزل بهم ضربات مدمرة . وكان مايني يمد يد المساعدة لأخيه ناصر الدولة في نزاله للروم شمالي الموصل وكثيراً ما نالهم هناك وفي شمالي الجزيرة . وما تقبل سنة ٣٤٦ حتى يكفهرّ الجو بين المتنبي وبين البطل العربي . ويرحل عنه وكأنما رحل معه مجده الحزني فقد واقع الروم في السنوات ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ولم يُنزل بهم ماتعود من التنكيل الشديد .

ولم يلبث البطل العظيم أن أصابه في سنة ٣٥٢ فالج في يده ورجله ورغم هذا الفالج النصفي نهض البطل من فراشه وصدّ بقوة هجوما للروم على حصن من حصون حلب . وفي سنة ٣٥٦ لبّى البطل نداء ربه ، وكان قد أوصى بأن يوضع خده في الحده على كَبْتَةٍ بقدر الكف جمعها مما علق بشيابه ودروعه وسلاحه من غبار غزواته للروم . ونُقِّذت وصيته . وكان يرعى العلوم والآداب أعظم رعاية . ولع في بلاطه أكبر تلامذة أرسطو حتى زمنه : الفارابي المعلم الثاني . ولع كثير من الشعراء والكتاب يتقدمهم المتنبي ، وعقد لهم الثعالي في كتابه « يتيمة الدهر » فصولا طويلة في الجزء الأول منه ، وفيه وفي أسرته يقول : « كان بنو حمدان ملوكا وأمراء أَوْجُهُم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للساحة ، وعقولهم للرّجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسط قلاذتهم ، وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرّجال ، وموسم الأدباء ، وحلّة الشعراء » . وخلفه ابنه سعد الدولة ، وكان ابن عمه أبو فراس الشاعر المشهور عامل أبيه على حصص قد ظلم وأكثر من الظلم وكثرت الشكوى منه ، فقاتله وخرّ أبو فراس في ميدان الحرب صريعا . وفي نفس السنة علم باستعداد الروم لحربه ، فأسل إليهم قرعويه الحاجب وأسر وأفلت منهم وانهمزم أصحابه وخرّب نفقور كثيراً من بلدان الشام وأعمل النهب

والسلب . وعصى قرغويه سعد الدولة واستولى على حلب في أول سنة ٣٥٨ ولم يلبث نقفور أن استولى على انطاكية ، وظلت في أيدي الروم إلى أن فتحها السلاجقة سنة ٤٧٧ وأمضى معه قرغويه صلحا ذليلا ، واصطلح مع سعد الدولة الذي ظل أميرًا لحلب حتى توفي سنة ٣٨١ فخلفه ابنه سعيد الدولة ، وقد عقد مثل أبيه حلفا بينه وبين الروم ضد الفاطميين الخطر المشترك للطرفين ، وتوفى سنة ٣٩٢ . وخلفه ولدان له ، ولعب بهما ثلوث مولى جددهما واستولى على الأمور إلى أن توفي وقام مكانه ابنه منصور . وحاول ابن لسعد الدولة يسمى أبا الهيجاء أن يسترد إمارة آبائه ولم يلبث أن قرأ إلى بلاد الروم في مطالع القرن الخامس الهجرى ، وبذلك انتهت إمارة الحمدانيين بحلب وشمالى الشام ، ولم تكن إمارة لهم حقا إلا في عهد سيف الدولة المجيد

## ٢

الفاطميون - بنو مرداس - السلاجقة - الصليبيون - آل زنكى (نور الدين)

(١) الفاطميون<sup>(١)</sup>

دولة شيعية إسماعيلية تأسست في تونس وتحوّلت إلى مصر بعد فتح قائدها جوهر لها سنة ٣٥٨ ، ولم يلبث أن أرسل إلى الشام جعفر بن فلاح على رأس جيش للاستيلاء عليها . ولم يلق مقاومة تذكر ، ودخل دمشق وخطب بها للمعز الخليفة الفاطمى في المحرم سنة ٣٥٩ ، وفى السنة التالية أعلن المؤذنون في الشام - بأمره - « حى على خير العمل » شارة الأذان الشيعى . وأخذ القرامطة يغيرون على دمشق ومدن الشام وكان يردهم جعفر بن فلاح ، ولم يلبث كبيرهم في البحرين الحسين بن أحمد - كما مر بنا في الحديث عن الجزيرة العربية بعصر الدول والإمارات - أن قطع علاقته بالفاطميين في مصر وأعلن خضوعه للخلافة العباسية ، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسى على لسان عز الدولة البويهى أن يوليه مصر والشام ويعطيه مالا وسلاحا لحرب المعز لدين الله ، وأمدّه عز الدولة بالسلاح والمال في سنة ٣٦٠ وقيل بل في سنة ٣٦٢ فسار إلى الشام وملكها ولعن المعز الفاطمى وأباه على منبر دمشق ، وأقام الدعوة للعباسيين ، وسار إلى القاهرة بعساكره وحصلت - بالقرب منها - بينه وبين المعز مناوشات ، وتقهر المعز ، وأغرى قواده بالمال فخرجوا

الوزارة لابن الصيرفى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى (طبع ليدن) في السنوات ٣٦٣-٥٥٥ واتعاظ المنفا بأخبار الخلفاء للمقرئى وكتابه المنطظ ٢١/٢ والفاطميون في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن.

(١) انظر في الفاطميين بالشام كتب التاريخ العامة: ابن الأثير وابن خلدون وابن تغرى بردى وابن خلكان في تراجم الخلفاء وجوهر الصقلى والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) وتاريخ مصر لابن ميسر والإشارة إلى من نال

عليه وانضموا إلى المعز ، فعاد إلى الرملة بالشام ومنها إلى البحرين . وكان ذلك أول اضطراب شديد حدث في الشام لعهد الفاطميين وانتشرت في أثنائه وبعده القوضى في دمشق واشتعلت النار في كثير من أحيائها .

وظل الفاطميون مسيطرين على الشام نحو قرن ، قلما وجدت فيه أمنا وسلاما بسبب كثرة الولاة الذين كانوا يولونهم عليها ، فكان هم الولاة أن يُثرى بسرعة على حساب أهلها وما يفرض عليهم من الضرائب ، وقد وليها لهم نحو خمسين والياً ، وكثيراً ما كان يتولاها اثنان أو أكثر في العام الواحد . وبسبب ظلم الولاة وكثرة الضرائب كانت تنشأ أحيانا ثورات محدودة لبعض العيارين بها كثرة قسّام الحارثي سنة ٣٧٧ لعهد العزيز الفاطمي . وخلف العزيز ابنه الحاكم بهوسه وشذوذه النفسى ودعواه الألوهية مما صورناه في قسم مصر ، وكان من أهم من أغراه بدعوى الألوهية رجل يعرف بالدرزى أمره الحاكم أن يخرج إلى الشام وينشر تلك الدعوة في الجبال ، فنزل هناك وتبعه كثيرون من جبل حوران في سوريا المعروف باسم جبل الدروز ، وانتشرت الدعوة بين سكان الإقليم الجبلي بلبنان ، ولا تزال في المنطقتين إلى اليوم ، وسقطت منها أسراب إلى جبال فلسطين وإلى الجبال في أعلى الشام على نهر العاصي وقرب أنطاكية . ومن المؤكد أن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية هي التي دفعت الحاكم ودعائه إلى ربوبيته إذ كانت تردّد - كما مر بنا في قسم مصر - أن الخلفاء تجسّد للذات العلية . وكان طبيعياً في عهد هذا الخليفة الشاذ المحبول أن تضطرب شئون الحكم في الشام . وكان أبوه وجده يستعينون ببدو الجزيرة العربية الشماليين من طيبي ورؤسائهم بنى الجراح ، ونرى حينئذ حسان بن المقرّب بن دغفل لا يكتفى بإقطاع الفاطميين لأبيه مدينة الرملة ، بل يستولى على أكثر الشام ، ويحاول أن يخلع الحاكم ، ويولى مكانه أبا الفتوح أمير مكة الحسنى ، ويقدم عليه أبو الفتوح ، غير أن الحاكم يغري ابن المقرّب بالأموال فينفض يده من أبي الفتوح ويعود إلى إمارته .

### (ب) بنو (١) مرداس

كانت حلب قد دخلت في حكم الفاطميين منذ سنة ٤٠٦ ولائحى طويلاً في سنة ٤١٥ حتى يستقل بها صالح بن مرداس الكلابي ويضع في سنة ٤٢٠ يده في يد حسان بن المقرّب الطائي ويجمعان الجموع ويستوليان على الأعمال في الشام ويتهبان إلى غزة ، ويلتقي بها جيش فاطمي ،

(١) انظر في بنى مرداس كتب التاريخ العام وزبدة الحلب من تاريخ حلب : الجزءين : الأول والثاني .

فينهزم حسان ويقتل في المعركة صالح وابنه الأصغر ، ويخلفه ابنه شبل الدولة نصر . وطمع صاحب أنطاكية في حلب ، وجمع لها الجموع وأحاط بها وقا تل أهلها ، ولم يلبث نصر أن خرج إليه وقتك بمعظم جنوده وفر على وجهه وغنم منه نصر عسكره وأموالا عظيمة . وتوفى نصر سنة ٤٢٩ وخلفه أخوه ثمال وخضع للفاطميين وتوفى سنة ٤٥٤ . ونشب خلاف بعده على حكم البلدة بين أخيه عطية وبين محمود بن نصر واصطلحا . وتخلص حلب لمحمود منذ سنة ٤٥٧ ، ويواقع الروم ويهزمهم ويراسل ألب أرسلان السلجوقي ويستقر بينهما الأمر على إعادة الدعوة العباسية والخضوع للسلاجقة . وفي أيامه قاد ألب أرسلان حملة مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « رومانوس ديوجين » سنة ٤٦٢ وفدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، على نحو ما مر بنا في حديثنا عن السياسة بالعراق في الجزء السابق من عصر الدول والإمارات . وظل محمود أميراً لحلب حتى سنة ٤٦٧ أو أعاد بها ذكرى الحركة الأدبية التي أحدثها بها سيف الدولة ، فالتف حوله كثير من الأدباء والشعراء ، وخلفه ابنه نصر وكان محبوبا من الحلبيين غير أن الموت اختطفه سريعا بعد نحو عام من ولايته ، وجاء في إثره أخوه سابق حتى نهاية سنة ٤٧٢ إذ سلم البلدة لمسلم بن قريش العقيلي صاحب الجزيرة فبقيت معه نحو خمسة أعوام وتسلمها منه السلاجقة .

### (ج) السلاجقة<sup>(١)</sup>

مر بنا في حديثنا عن العراق بالجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي حديث مفصل عن السلاجقة واستيلائهم على دفة الحكم في خراسان وإيران والعراق ، وقد أنزل ألب أرسلان بإمبراطور بيزنطة هزيمة ساحقة كانت لإرهاصا قويا لزوال الحكم البيزنطي من آسيا الصغرى كما حدث فعلا . وكان طبيعيا أن يفكر ألب أرسلان وابنه ملكشاه في الاستيلاء على الشام ، وسرعان ما ظهر في سنة ٤٦٣ أنس بن أوق الخوارزمي في فلسطين واستولى على الرملة وبيت المقدس ، وفي سنة ٤٦٨ استولى على دمشق ، وبذلك أصبح أكثر الشام تابعا للسلاجقة . حتى إذا كانت سنة ٤٧٢ تسلم تشش بن ألب أرسلان من أنس دمشق وأصبح نائبا فيها لأخيه ملكشاه ، وافتتح في سنة ٤٧٤ أنططوس على ساحل البحر المتوسط ، وهي أول أعمال حمص ، ولم يلبث أن استولى على

ويمين ولها بعده حتى استيلاء نور الدين عليها ابن خلكان

(١) راجع في سلاجقة الشام كتب التاريخ العام وذيل

تاريخ دمشق لابن القلانسي وانظر في أنس تاريخ دمشق

لابن عساكر ٣٣١/٢ وفي تشش ابن عساكر ٣٤٠/٣ وفيه

حصص نفسها . وظل ساحل الشام جنوبي صور تابعا لمصر . واستقل جلال الملك بن عمار قاضي طرابلس بها سنة ٤٧٠ وكان قد أقره عليها ملكشاه السلجوق وظلت معه حتى أخذها الصليبيون سنة ٥٠٢ . وفي هذه الأثناء استولى على بن منقذ من الروم على حصن شيزر شمالي الشام سنة ٤٧٤ وظلت في يده ويد أبنائه إلى أن هدمتها زلزلة شديدة سنة ٥٥٢ . وكان سليمان بن قُتلمش استولى على أنطاكية سنة ٤٧٧ فحاربه تُتُش وخَرَّ صريعا في الحرب سنة ٤٧٩ . وبذلك صارت إلى تُتُش واستولى على حلب سنة ٤٨٧ ، وقُتِل بالرى في حرب مع ابن أخيه بَرَكياروق سنة ٤٨٨ . وخلفه على حلب ابنه رضوان ، ومن نوابه أخذ الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩٢ وخلفه على دمشق ابنه دُقاق .

وتوفى دقاق سنة ٤٩٧ فخلفه عليها أتابكه « طُغْتِكِين » وأسس بها دولة البوريين وله في جهاد الصليبيين يد بيضاء وكان شجاعا عادلا في الرعية توفى سنة ٥٢٢ فخلفه ابنه بوري حتى وفاته سنة ٥٢٦ وكان قد قتل جماعة كثيرة من الإسماعيلية فسَلَطُوا عليه رجلين ضرباه بالسكاكين وظلت جراحه تنتفض وتندمل إلى وفاته . وخلفه ابنه إسماعيل ، وكان ظلما سيئ السيرة مجا لسفك الدماء توفى سنة ٥٢٩ وكان أسوأ منه أخوه محمود الذي ولى بعده فقتله أمراؤه سنة ٥٣٣ وخلفه عاما واحداً أخوه محمد ، وتوفى فخلفه ابنه مجير الدين آبق . وكان باغيا ظلما ، وكان يضع يده في يد الصليبيين ضد نور الدين صاحب حلب غير مراعى إلا ولا عهدا . واستجار منه أهل دمشق مراراً بنور الدين حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ اضطر إلى تسليمها إليه وخرج منها ذليلا صاعرا . وكان تُتُش ولَّى تركمانيا يسمى أرتق بيت المقدس فاستقلَّ به مؤسسا دولة الملوك الأرتقية ، وتوفى سنة ٤٨٤ فخلفه عليها ولداه سُكَّان وإيلغازى ، ومنها أخذها الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩١ وتوجها إلى بلاد الجزيرة وملكا - كما يقول ابن خلكان - ديار بكر .

### (٥) الصليبيون<sup>(١)</sup>

كانت الدولة الفاطمية قد أخذت في التدهور منذ عهد الحاكم بسبب ما غرق الخلفاء الفاطميون فيه من ترف وما أصاب الحياة الاقتصادية من سوء حتى لقد عظمت المجاعة في عهد المستنصر (٤٢٧-٤٨٧ هـ)، وحاول بدر الجمالى أن يتلافى الأمور، فعمل على

(١) انظر في الصليبيين كتب التاريخ العام لابن الأثير وابن

نغرى بردى وابن خلدون وما كتب عنهم حديثا في العربية

إصلاحها ، ولكن الشام كانت قد أفلتت منه إلا ساحلها الجنوبي . وكان المظنون أن يرث السلاجقة تلك الدولة المنهارة ، غير أنهم اتبعوا في حكمهم نظاما سرعان ما وضع دولتهم إذ اتخذوا فيها نظام الأتابكة ، وهو أن يكون مع كل حاكم لبلد أتابك أو بعارة أخرى قائد يدير أمرها ، ولم يلبث نفوذ هؤلاء الأتابكة أن ازداد وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين . وبذلك تفككت سريعا أوصال دولتهم الضخمة ونحوت إلى دويلات على نحو ما مر بنا آنفا من دولة البوريين في دمشق والدولة الأرتقية في بيت المقدس ، حتى إذا قدم الصليبيون في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري لم يجدوا أمامهم قوة تدفعهم دفعا إلى البحر المتوسط وماوراءه فلا السلجوقيون محتفظون بقوتهم القديمة التي أزالوا بها بيزنطة ودفعوها من آسيا إلى أوربا ولا الفاطميون محتفظون بشيء من القوة يستطيعون أن يدفعوا به عن بلدانهم الساحلية في الشام هذا الوباء الصليبي الجارف .

ويظهر الجيش الصليبي أمام أسوار أنطاكية سنة ٤٩١ للهجرة ويظل محاصرا لها حتى يستولى عليها سنة ٤٩٢ مؤسسا بها إمارة ، بينما يتسلل بلدوين إلى الرها في سنة ٤٩١ ويستولى عليها دون مقاومة تذكر ويؤسس بها إمارة هي الأخرى . واجتاز الصليبيون جبال التَّصْبَرِيَّة محاذين الساحل واستولوا سنة ٤٩٢ على بيت المقدس متخذين منه إمارة ثالثة جعلوا جودفري رئيسا لها ، ولم يلبث أن رقى عرشها بعده بلدوين الأول وعهدوا إلى الكونت ريمونددى تولوز حصار طرابلس والاستيلاء عليها وظلت تقاومه سنين عددا حتى سقطت سنة ٥٠٢ واتخذوا منها إمارة رابعة لهم . وأخذ بلدوين في نفس السنة ينشط في غزو مدن الساحل : عكا وقيسارية وصيداء وبيروت وقاومته مقاومة صلبة . وخلفه أخوه بلدوين الثاني الذي استولى على صور سنة ٥١٨ ولم يفلح في الاستيلاء على دمشق وظلت أيدي الصليبيين أقصر من أن تصل إلى بلدان الشام الداخلية مثل بعلبك ودمشق وحمص وحماة وحلب .

### (هـ) آل زنكي<sup>(١)</sup> (نور الدين)

لم يلبث أن تنبه أتابك عظيم من أتابكة السلجوقيين هو زنكي عماد الدين التركماني أمير حلب

من المنتظم والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والكواكب الدرية في السيرة النورية لابن قاضي شهبة (طبع بيروت) وابن خلكان ٣٢٧/٢ ، ١٨٤/٥ .

(١) انظر في آل زنكي ونور الدين التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير وكذلك كتابه الكامل والجزء الخامس لابن خلدون والجزء السادس من التاجم الزاهرة والعاشر

إلى أن الداء إنما يكمن في تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لحملة الصليب شيئا ودولا ، فصمم أن يجمع قوتها وكلمتها تحت لوائه ، وكان قد ركز لوائه على الموصل أولا ، فضم إليه حلب ومدن شمالي الشام مثل حماة وحمص وبعليك . ومضى ينازل الصليبيين واستولى منهم على معرة النعمان وكفر طاب . ولم يلبث أن ضربهم ضربة قاصمة باستيلائه على مدينة الرها سنة ٥٣٩ للهجرة . وبذلك محار هذه الإمارة التي أقامها الصليبيون في بلب الدولة السلجوقية . ولم تكده تصفى ستان على ماحقق من هذا المجد البطولي حتى امتدت إلى جثائه الطاهر أيد آئمة في الظلام سفكت دمه الزكي .

وكان قد أوصى عماد الدين زنكي لابنه غازي بالموصل ولابنه نور الدين محمود بحلب ، واقتفى البطل الشاب نور الدين جهاد أبيه للصليبيين ، ونازلهم تواس سنة ٥٤٢ وأخذ منهم حصن أرتاح من أعمال حلب ، وأبطل في إمارته أذان الدولة الفاطمية بحجى على خير العمل . وفي سنة ٥٤٤ هزم حملة الصليب هزيمة ساحقة إذ قتل منهم ألفا وخمسمائة وفتح حصن فامية ، واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ كما مر بنا . وفي سنة ٥٥٢ ملك حصن شيرز بعد أن نقضه زلزال شديد . وفي سنة ٥٦٠ فتح بانياس عنوة . وكان بعيد النظر بعدا جعله يرى أن المفتاح الحقيقي للنصر على حملة الصليب هو مصر بإمكاناتها في المال والرجال ولكن ماذا يصنع وبها دولة منهارة ، وأحس أن حملة الصليب يشعرون أنها لقمة سائغة وخاف عليها منهم خوفا شديدا . ولم تلبث أن واثته فرصة عظيمة فإن وزيرها ضرغامو وشاور تجاربا ، ولجأ إليه شاور مستغيثا ، فأجده بأمرين أبييين : شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ومحدثها بما في نفسه من تخليص مصر من دولتها المريضة . وتتطور الظروف وتصبح مصر خالصة لصلاح الدين ويؤسس بها الدولة الأيوبية ومؤسسها الحقيقي ومنشئها إنما هو نور الدين . وكان ماينى ينازل حملة الصليب ، وفتح حصون «مرعش وإعزاز وحارم» وغير ذلك مما تزيد عدته على خمسين حصنا . وكان ملكا عادلا عابدا زاهدا ورعا ، بنى كثيرا من المدارس في بلدان الشام الكبار وكثيرا من الجوامع وبيمارستان دمشق وبها توفي سنة ٥٦٩ وخلفه ابنه وكان صبيا وبقي على حلب حتى توفي سنة ٥٧٧ ودخلت في حوزة صلاح الدين وحكمه .

## الأيوبيون (صلاح الدين) - المماليك - العثمانيون

### (١) الأيوبيون<sup>(١)</sup> (صلاح الدين)

استقرت أمور الحكم وشئون الدولة في مصر بيد صلاح الدين سنة ٥٦٧ للهجرة، فعاد بمصر إلى الخلافة العباسية، وسار في نفس السنة لحرب حملة الصليب فحاصر الشوبك ورفع الحصار عنها، وعاد إليها في السنة التالية ثم تركها إلى مصر. وتوفي نور الدين كما ذكرنا وأخذ يفكر جادا في جمع كلمة البلدان المجاورة للصليبيين حتى يقضى عليهم قضاء مبرما. وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ فاستولى على حمص وحماة والمعرة وكفرطاب، ويولّى على حماة أخاه تقي الدين وعلى بعلبك ابن أخيه قُرخشاه ويستولى على منبج وإعزاز ويواقع الصليبيين في السنوات : ٥٧٣ و ٥٧٤ و ٥٧٥ وينصره الله عليهم نصرا عظيما. ويستولى على الموصل، وتبلغه وفاة إسماعيل بن نور الدين. ويخرج إلى الشام سنة ٥٧٨ في جيش جرار لجهاد حملة الصليب، وهي آخر مرة يفارق فيها مصر لحرهم ويظل ينازلمهم عشر سنوات طوالا، وتتبعه حلب ويولى عليها ابنه الملك الظاهر. وفي سنة ٥٨٢ يقسم البلاد بين أبنائه وأهله فيعطى مصر ابنه العزيز عثمان وكان قد أعطى الظاهر حلب، ويعطى للأفضل ابنه دمشق ويعطى حماة والمعرة ومنبج لابن أخيه تقي الدين عمر، وسيتوالى هذا التوزيع. وهو من أكبر أغلاط صلاح الدين فإن بساطا قد يتسع لنوم عشرة من الرجال ولكن مملكة ضخمة لاتتسع لسلطان حاكمين، ولذلك لم تكد تمضى سنة على وفاته حتى دب الخلاف بين أبنائه ثم بين أمراء أسرته. ويُقفر له ذلك بلاؤه العظيم في حرب حملة الصليب المعتدين.

ويقود صلاح الدين في سنة ٥٨٣ جحافل جرّارة ويتجه بها نحو طبرية، وتتجمع له حشود الصليبيين بقيادة جاي لوزيجان ملك بيت المقدس وتلتقى سرّية له في حيفا يجماعه من الداوية والإسبتارية الذين نلروا أنفسهم لحرب المسلمين فلا تبق منهم باقية، ويلتقى الجمعان في سهل حطّين إلى الغرب من بحيرة طبرية، وتُدقُّ أعناق حملة الصليب دقا شديدا ويفر على وجهه ريموند

صلاح الدين لابن شداد، وابن خلكان في تراجم صلاح الدين وسلطين الدولة الأيوبية. وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ماكب عن صلاح الدين في العربية حديثا وفي اللغات الأجنبية.

(١) انظر في الأيوبيين وصلاح الدين كتب التاريخ العام: ابن الأثير وابن خلدون وخطط المقرئ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ومفرج الكروب لابن واصل والروضتين وذيل الروضتين لأبي شامة والفيح القسي في الفتح القدسي والبرق الشامي للهاد الأصبهاني وسيرة

صاحب طرابلس ويستولى المسلمون على الصليب الأعظم صليب الصلבות ، ويؤسر ملك بيت المقدس وغيره من زعمائهم أمثال مقدم الداوية وريچينالد صاحب الكرك وكان قد أعد أسطولا وحاول غزو مكة والمدينة فقتله صلاح الدين بنفسه وعفا عن الباقيين . وبلغ من كثرة القتل والأسرى أن قال أبو شامة : « من شاهد القتل قال : ما هناك أسير ، ومن شاهد الأسرى قال : ما هناك قتيل » وما يدل على كثرة أسراهم أن الأسير منهم كان يباع بثلاثة دنانير .

وحاصر صلاح الدين بيت المقدس بعد نحو ثلاثة أشهر ، واستسلم له من فيه من حملة الصليب وأزيلت كل آثارهم من القدس ، وفتحت البلدان والقلاع في فلسطين وجنوب لبنان أبوابها للبطل العظيم ، فاستولى على نابلس وحيفا وعكا وبيروت وصيداء والرملة وبيت جبريل ( بئر سبع ) وعسقلان وغزة وصيد و الكرك والشوبك واللاذقية . وأحيا سقوط القدس في يد صلاح الدين فكرة الحرب الصليبية من جديد ، فحمل الصليب فرديك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وحاصر الأحياء عكا وسقطت في أيديها وعاد فيليب إلى فرنسا وظل ريتشارد يقود الجيوش الصليبية حتى سنة ٥٨٨ وعقد صلحا مع صلاح الدين لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر على أن تظل لحملة الصليب المدن الساحلية من صور إلى يافا . وبعد نحو ستة أشهر توفي صلاح الدين بدمشق وبكاه المسلمون بدموع غزار في كل مكان . وكان صلاح الدين عادلا ورعا عالما تقيا ، حطّ عن ظهور أهل الشام ما كان يبظههم من الضرائب وملأها بالمدارس والخانقاهات والبيهارستانات وكانت سماحته ونبله في معاملة حملة الصليب مضرب الأمثال ، وكان إلى ذلك بطلا مغوارا وغيا مدرا را .

وذكرنا آنفا أنه قسم البلاد بين أبنائه وأهل بيته ، فكانت دمشق للأفضل ومصر للعزير و حلب للظاهر ، والديار الفراتية لأخيه العادل وبعليك ليهرام شاه وحمص لشيركوه الثاني . وكان ذلك نذير شؤم فإن العادل أخذ يجرّض أبناء صلاح الدين بعضهم على بعض واستطاع التخلص منهم ، وخلصت له البلاد من مصر إلى الفرات منذ سنة ٥٩٦ ماعدا حلب فإنها ظلت مع الظاهر وأبنائه حتى الغزو المغولي . وصنع صنيع أخيه فجعل مصر للسلطان الكامل ودمشق للسلطان المعظم والجزيرة الفراتية لثلاثة من أولاده على التعاقب هم الأوحده والفائز والأشرف موسى . وبلغ حملة الصليب مصر في سنتي ٦٠٩ و٦١٥ وينكل بهم السلطان الكامل على نحو ما صورنا ذلك في قسم مصر . ونحضى إلى سنة ٦٢٦ وإذا فرديك الثاني ملك صقلية يأتي على رأس حملة إلى فلسطين

وتصادف أن كان الكامل مشغولا بصراع مع داود ابن أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق فارتضى أن يتنازل لفرديك عن القدس في مقابل عونه له ضد ابن أخيه وكان قد استعان بأخيه الملك الأشرف موسى ضده أيضا وحاصراه وتسلم منه دمشق وأعطاهما الكامل لأخيه وعوض داود الشوبك بدلا منها .

وبمجرد أن تسلم فرديك القدس قامت قيامة الناس فلم يقم بها سوى ليلتين وعاد إلى يافا مذموما مدحورا . وتوفى الأشرف موسى صاحب دمشق سنة ٦٣٥ ولم يلبث أخوه الكامل أن توفى على أثره في نفس السنة بدمشق ، وكان ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب نائبا له على الشرق وإقليم ديار بكر ، وكان ابنه العادل الصغير نائبا له على مصر فرأى أمراؤه أن يضيفوا إليه ملك الشام ، ولم يُرضِ ذلك الملك الصالح فنحى أخاه في سنة ٦٣٧ عن ملك مصر وانتهز عمه إسماعيل صاحب بعلبك الفرصة واستولى في نفس السنة على دمشق ونشب صراع بينه وبين الملك الصالح واستعان ضده بحملة الصليب وعقد بينه وبينهم تحالفا أثار سخط العالم الإسلامي ، وهزم الملك الصالح الحلبيين في غزة سنة ٦٤٣ ودخلت دمشق في حوزته .

وبذلك أعاد الملك الصالح توحيد مملكة صلاح الدين من النيل إلى الفرات ، ولم ينعم بذلك طويلا إذ نزل به مرض شديد سنة ٦٤٧ وكان بدمشق وسمع بتزول لويس التاسع بدمياط ، فأصرع لمنازلته وهو مريض محمول على محفة لشدة مرضه ، واتجه تَوًّا للقاء العدو بالمنصورة شمال الدلتا في الطريق إلى دمياط ، وهناك لَبَّى نداء ربه مجاهدا مدافعا عن الإسلام والمسلمين . وكتمت زوجته شجرة الدر موته حتى قدم ابنه المعظم توران شاه من الجزيرة وأدار المعركة ضد لويس - كما مر بنا في قسم مصر - وسحق جيشه سحقا ذريعا ، وكبله بالسلاسل والأغلال ، إلى أن فدا نفسه وخرج من مصر . وسوّلت له شياطينه أن يذهب إلى حملة الصليب في الساحل الشامى لعله يسترد كرامته التي أهدرت بمصر وبقى بين حملة الصليب نحو أربع سنوات لم تسفر عن شيء ، فعاد إلى فرنسا كاسفا مقهورا . أما توران شاه فجزاه مماليك أيه جزاء سنار إذ سفكوا دمه الطاهر . ورقبت إلى العرش شجرة الدر ثم تنازلت عنه للمعز أيك مملوك أيه فأسس دولة المماليك . أما دمشق فاستولى عليها الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب . وكان آخر من حكمها من الأيوبيين .

(ب) المماليك<sup>(١)</sup>

تأسست في مصر بعد مقتل توران شاه سنة ٦٤٨ دولة المماليك ، وعدَّهم الحكام الأيوبيون في الشام مغتصبين للحكم من أصحابه الشرعيين ، وأعدوا بزعامة الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب جيشا لحربهم ، ولقيه المعز أيك التركماني في غزة سنة ٦٤٨ وهزمه . وظلت العلاقات سيئة بين الطرفين حتى أصلح الخليفة العباسي بينها لسنة ٦٥١ على أن يكون للمالك نهر الأردن ونابلس والقدس وغزة والساحل ، وللأيوبيين بقية الشام ، وقد دفعها إلى هذا الصلح اشتداد خطر التتار . وحاول الناصر يوسف أن يسترضى قائد هذا الوفاء هولاء سنة ٦٥٥ فأرسل إليه بهدية ، ولم يلبث هولاء أن اندفع بسبب التتار إلى بغداد سنة ٦٥٦ فأجرى الدماء فيها أنهارا وخربها وأحالتها أنقاضا ، ودخل هولاء في السنة التالية ديار بكر ومَلَك حَرَّان وبلاد الجزيرة ، وتحقق الناصر أنه سيقتصد حلب فتزكها إلى شمالي دمشق ، وفي شهر صفر سنة ٦٥٨ استولى التتار على حلب معملين فيها النهب والسلب ، وتقدموا في ربيع الأول إلى دمشق واستولوا عليها ، وفرَّ الناصر يوسف وأسرته التتار ، وبقي معهم في ذلِّ وهوان ما بعده هوان .

ومضى التتار يتقدمون في ديار الشام حتى عين جالوت بين نابلس ونيسان ، وإذا الموت والتشريد ينتظرهم على يد المصريين والبطليين العظميين المملوكين : قطز سلطان مصر والظاهر بيبرس قائده ، وقد أحذقوا بهم ونازلوهم حتى أفنؤهم قتلا . وتبع بيبرس فلولهم إلى حلب وأطراف الشام . وأصبحت جميع الديار الشامية في قبضة الممالك ماعدا حاة فإن أميرها الأيوبي الملك المنصور ناصر الدين محمد سليل عمر بن شاهنشاه كان قد وضع يده في يد قطز وبيبرس في حربها للتتار وظل على حاة حتى سنة ٦٨٣ وولاها قلاوون ابنه تقي الدين واستولى عليها الناصر بن قلاوون سنة ٦٩٨ ثم ردها إلى الملك الصالح المؤيد أبي الفدا إسماعيل سنة ٧١٠ وظلت معه حتى سنة ٧٣٢ ووليها بعده ابنه الأفضل ثم أصبحت للممالك يولون عليها من يشاءون مثلها مثل بقية بلدان الشام .

وعُنى الظاهر بيبرس حين أصبحت مقاليد الأمور بيده منذ سنة ٦٥٩ بالإعداد لحرب من تبنى من حملة الصليب في ساحل الشام وأخذ يغير عليهم وينازهم ، حتى إذا دخلت سنة ٦٦٤ خرج

وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات وسيرة الملك المنصور (قلاوون) طبع القاهرة والنهر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي وآخرة الممالك لابن زنبيل وبروكلمان ص ٣٦٥ .

(١) انظر في الممالك النجوم الزاهرة وغيره من كتب التاريخ العام والسلوك للمقرئ والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والبداية والنهاية وبدائع الزهور لابن إياس

إليهم على رأس جيش جرار واستولى على قيسارية ويافا وأرسوف وكان بها حامية من الإمبراطورية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين . وفي العام التالي استولى على صفد وثبتين والرملة في فلسطين . وتوالى هجومه عليهم واستولى على الشقيف وطبرية وبغراس والقصير وحصن الأكراد والقرين من حصون صفد وكان به حامية من الفرسان التوتون . وأعظم أمجاده الحربية ضد حملة الصليب أخذه أنطاكية سنة ٦٦٧ ويقال إن أسراها بلغوا مائة ألف وأن الغلام من أهلها كان يباع باثني عشر درهما والجارية بخمسة . والمهم أنه محا هذه الولاية التي أقامها حملة الصليب في أول دخولهم للشام . وبدا في الأفق من حينئذ أن خروج حملة الصليب نهائيا من الشام أصبح قاب قوسين أو أدنى ، وقد استولى منهم قلاوون في سنة ٦٨٦ على اللاذقية ولم يلبث ان استولى على طرابلس في سنة ٦٨٨ وبذلك أزال آخر إمارة أو ولاية لحملة الصليب ، وسرعان ما سلمت بيروت وجبله . حتى إذا تولى بعده ابنه السلطان خليل جهز جيشا ضخما للاستيلاء على عكا واستولى عليها سنة ٦٩٠ وتبعها صور وصيداء وحيفا وأنطربطوس ، وخرج من بقي من الصليبيين إلى البحر المتوسط وما وراءه يحملون الذل والضعة والهوان والصغار .

وقد قسم المماليك الشام إلى ست نيابات كبرى هي : دمشق وحلب وحماة في سوريا وطرابلس في لبنان وصفد في فلسطين والكرك في شرق الأردن . وكانت دمشق أهم هذه النيابات ، وكان حاكمها يعد نائب السلطان المملوكي في الشام مما أتاح له مكانة خاصة . وجعل نفرا منهم غير قليل يطمح إلى أن يكون هو السلطان التالي للسلطان القائم بمصر ، ولعل ذلك ماجعل سلاطين مصر يكثرون من عزلهم ، حتى ليتولى دمشق في زمنهم الذي امتد نحو مائتين وخمسة وسبعين عاما أربعة وسبعون نائبا . وقد درسهم ( قبيت ) وتبين له كما ذكر في كتابه مساجد القاهرة ص ٥٦ : أن اثنين منهم هما لاجين ( ٦٩٦-٦٩٨ ) والمؤيد شيخ ( ٨١٥-٨٢٤هـ ) رقيا إلى السلطنة ، وسبعة وعشرين منهم ثاروا على السلطان قرّمهم خارج الحدود اثنان وسجن خمسة وأعدم خمسة وعُوقب عن خمسة . وكان لنائب دمشق من الدواوين مثل مالمسلطان مصر وكثيرا ما كان ينقل رئيس ديوان في القاهرة إلى دمشق وبالعكس ، وكثر ذلك في كتاب السر والإنشاء . وبذلك كله كانت دمشق تعد المدينة الثانية في دولة المماليك مما عاد عليها بغير قليل من الازدهار . وأمر الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٣ أن يتولى القضاء أربعة يمثلون مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وعم ذلك في دمشق والمدن الكبرى بمملكته في مصر والشام . وظل هذا النظام قائما طوال زمن المماليك .

وظل التتار يثبُتون من عار الهزيمة الفاضحة في عَيْنِ جالوت ، وظلوا يحاولون غسل هذا العار بغارات فاشلة على أطراف الشام ، وكسرتهم جيوش الظاهر بيبرس مرارا ، من ذلك كسرتهم على حمص سنة ٦٥٩ ، وأغاروا على البيرة سنة ٦٦٤ وعلموا بتحريك بيبرس فولوا مدبرين . وفي سنة ٦٦٨ أغاروا على نهر الساجور بمنجج ، وسرعان ما انهزموا ، وعاودوا الهجوم على عيّناب وحارم سنة ٦٧٠ وساعدهم حملة الصليب فحاقت بهم الهزيمة جميعا . وظلوا يعاودون المناوشة وهاجموا البيرة في سنة ٦٧١ وأشرفوا على أخذها فعبر إليهم الظاهر الفرات وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وتغنى الشعراء طويلا بهذا النصر المبين ، ونكل بهم في سنة ٦٧٥ تنكيلا شديدا . وظل التتار يعاودون هذه الغارات والمناوشات في عهد قلاوون ويبيءون منها بالهزيمة ، وقد استولى منهم ابنه السلطان خليل على قلعة الروم غربي الفرات سنة ٦٩٢ . وتولى شتون التتار غازان وكان قد دخل في الإسلام مع جنوده . ومع ذلك أعد في سنة ٦٩٩ حملة لغزو الشام ولقيه محمد الناصر بن قلاوون بين حمص وحماة ودارت الدوائر على الناصر ، واستولى جيش غازان على دمشق وغيرها من مدن الشام وعاثوا فيها فسادا . وعاد الناصر إلى مصر وجهز جيشا جرارا التقى به مع التتار قرب دمشق سنة ٧٠٢ وسحقهم سحقا ذريعا ، بحيث لم يعودوا يفكرون في غزو الشام وإن هم فكروا ارتدوا إلى صوابهم سريعا .

وتغضى إلى سنة ٨٠٣ فيقدم تيمورلنك بجموعه غازيا الشام ، ويلقاه جيش المالك ، فيهزمه ويقتحم حلب ويُعمل فيها السيف والسلب والنهب ، ويتقدم إلى دمشق وينزل بالسلطان فرج في طريقه إليها هزيمة نكراء . وترضى دمشق بالتسليم وينهبها جنوده التتار ويشعلون فيها النيران وتأتي على جامعها الأموى وعلى كثير من آثارها ، ويقتلون مالا يكاد يحصى من أهلها نساء ورجالا وأطفالا : كارثة لم يُصب دمشق مثلُ لها لا من قبل ولا من بعد . وضاعفها أن تيمور جمع رجال الفن والهندسة والمعمار وصناع الزجاج والصلب وأخذهم معه إلى عاصمته سمرقند .

وتتحدث كتب التاريخ عن ثورات وفتن حدثت في الشام لعهد المالك ، غير أن أكثرها إن لم تكن كلها ، إنما كانت صراعا على السلطة بين السلاطين ونوابهم في الشام . ومن هذا الصراع ماحدث من تحول الملك من المالك البحرية إلى المالك البرجية الجراكسة على يد برقوق سنة ٧٨٤ . وقد عانت الشام - كما عانت مصر - من النزاع المستمر بين أمراء المالك ، حتى كانوا يقتتلون كل مع أنصاره في شوارع دمشق والقاهرة . وكثر ذلك في القرن الأخير من حكم

الماليك ، وأخذت دولتهم في الضعف تدريجاً حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في معاركها مع السلطان سليم العثماني على أبواب الشام في مَرَج دابق .

(ج) العثمانيون<sup>(١)</sup>

قضى سليم الأول العثماني على دولة الماليك في الشام ومصر بعد هزيمته لقانصوه الغوري في موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ للهجرة . وبعد أربعة أيام من الموقعة دخل حلب ولقيه أهلها بترحاب شديد وأوقدوا له الشموع وتعالّت أصواتهم له بالثناء ، وخطبوا له على منابرها . وفتحت له مدن الشام أبوابها ، فاستولى على دمشق وقصده فيها أمراء لبنان وخاصة من بني مَعْن الدروز النازلين بجبالها مما جعل سلباً ومن خلفوه من سلاطين آل عثمان يعترفون لهم بالإمارة في لبنان . ومضى سليم يستولى على بقية مدن الشام . وفتح مصر وظل بها ثمانية أشهر وعاد منها إلى دمشق ، ورأى بوضوح تدهور الأوضاع الاقتصادية في تلك الديار بسبب اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح والنفوذ منه إلى الهند ونقل توابلها وتجاراتها منه مما أضر إضراراً شديداً بطريق البضاعة الهندية القديم خلال حلب والشام . وكانت حروب الصليبيين والتتار التي حوّلت الشام إلى ساحة حرب كبيرة لمدة قرنين من الزمان قد أحالت أجزاء كثيرة من مدنها إلى خرائب وخاصة مدن الساحل . وكأنما توّسم أهل الشام أن العثمانيين سيعيدون إلى طريق التجارة الهندية ازدهاره الماضي ، ولذلك رحبوا بسليم والعثمانيين ، وتلاشى هذا الحلم مع الأيام . وكان قد فرّ إلى سليم من الماليك مملوك خائن هو الغزالي الذين زين له فتح الشام ومصر فكافأه بتوليته على الشام ما عدا حلب إذ جعلها لبعض الباشوات العثمانيين . وبمجرد أن توفي سليم الأول سنة ٩٢٦ أعلن الغزالي استقلاله بالشام ولقب نفسه بالملك الأشرف ، وسرعان ما هزمته الجيوش العثمانية وخرّ صريعاً عند أبواب دمشق . ورأى العثمانيون أن تتوزع الشام ثلاث نيابات على رأس كل نيابة باشا : أولها نيابة حلب وتشمل سوريا الشمالية ، وثانيها نيابة طرابلس وتشمل أربعة سناجق أو ألوية هي : حمص وحماة وسلمية وجبله ، وثالثها نيابة دمشق وتشمل عشرة سناجق أهمها بيروت وصيداء ونابلس وبيت المقدس وغزة . وفي سنة ١٠٧٣ خصوا صيداء بنيابة مستقلة تشمل ساحل الشام ما عدا نيابة طرابلس في لبنان .

لساطع المصري ، ومقدمة تاريخ العرب الحديث لعبدالكريم غرايبة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ١٤٤٨ وتاريخ العرب (مطول) لعليّيب حتى .

(١) انظر في العثمانيين بالشام بدائع الزهور لابن إياس ، وآخرة الماليك لابن زنبل وتاريخ المبرق والمنظط التوفيقية لهل مبارك والبلاد العربية والدولة العثمانية

وكان يساعد الوالى فى الإدارة ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار أو رئيس العسكر والدفتردار أو مدير الخزانة والروزنامجى أو حافظ السجلات وقاضى القضاة وأمير الحج ورؤساء المذاهب الفقهية الأربعة . وبجانب هذا الديوان ديوان صغير خاص بنائب الوالى ومعه دفتردار وروزنامجى .. وُمنح أصحاب السناجق أو الألوية لقب بك . وكثير من الولاة كانوا يختارون من الإنكشارية وهم شبان أوريون من أجناس مختلفة كانوا يُربون تربية إسلامية عسكرية ، وكان هم الوالى منهم أن يجمع لنفسه فى مدة ولايته القليلة ما يستطيع من الأموال مما جعلهم يرهقون أهل المدن بالضرائب ، وقلمًا كان حكم الوالى يتجاوز المدينة وضواحيها . أما داخل البلاد فقد تُرك للإقطاعيين من سكان الشام ومَن وراءهم من بدو الجزيرة ، وكان عددهم قد تزايد زيادة كبيرة منذ زمن المالك ، وكان أكثرهم من الدرروز مثل آل معن وآل أرسلان والشهابيين ومن التركمانين مثل آل عساف ومن البدو مثل آل فضل . وفى كل مكان نجد هؤلاء الإقطاعيين مثل آل حرفوش يعلبك وآل فريح فى البقاع وآل جبار فى سلمية ، ولم يكونوا يؤدون للعثمانيين أو الباب العالى إلا ضرائب محدودة ، وخاصة أن الموارد كانت قد تضاءلت إذ تدهورت التجارة وتدهورت أيضا الزراعة . وبدل على فساد الحكم العثماني واضطرابه فى الشام كثرة من كانوا يؤلون ويعزلون من الولاة ، حتى ليؤلى على دمشق فى مائة وثمانين عاما مائة وثلاثة وثلاثون باشا أو واليا ، مما جعل فخر الدين من آل معن الدرروز (٩٩٠-١٠٢٣هـ) يسيطر على أكثر أرجاء الشام من أنطاكية إلى صفد لنحو نصف قرن ، وأذن لفلورنسا بإقامة قنصلية لها فى بلاده ولم ير بأسا من الإذن لفرنسا بفتح فندق فى صيدا وأذن للمبشرين المسيحيين بالتبشير بين المسلمين والدروز . وتنتهت له أخيرا الدولة العثمانية فأرسلت إليه جيشا لتأديبه ففر من البلاد راجعا البحر إلى صديقه فرديناند أمير توسكانيا . ونمضى إلى سنة ١١٦٤هـ/١٧٥٠م فيسقط ضاهر العمر صاحب صفد سلطانه على عكا ويعلن استقلاله وعصيانه للباب العالى بفضل معونة على بك الكبير المملوك المشهور أيضا بعصيانه للعثمانيين ومحاولة الاستقلال عنهم بمصر . ومحاصر العثمانيون ضاهر العمر وتدركه المنية سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م . ويليه بعده أحمد الجزار ويلعب دورا شبيها بدور ضاهر العمر ومحضن عكا . وعبثا يستطيع نابليون فتحها ويضطر إلى رفع حصاره عنها بعد ثلاثة أشهر ، إذ باء حصاره لها بالإخفاق الذريع سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٩م . وكانت الأحوال الاقتصادية فى الشام تتردى من سببى إلى أسوأ طوال الحكم العثماني ، وظل كابوسه جاثما على صدر البلاد طوال القرن التاسع عشر الميلادى بل طوال شطر كبير من العصر الحديث .

المجتمع<sup>(١)</sup>

حين دخل العرب الشام وجدوا فيها أخلاطاً من أجناس شتى لموقعها على أبواب آسيا الغربية وفي قلب الشرق القديم وكثرة من نزلوها من الكنعانيين الفينيقيين ومن الفلسطينيين الأوريين القدماء وكثرة المهاجرين إليها من البابليين والكلدانيين والحثيين والآشوريين والآراميين والعبرانيين واليونانيين والرومانيين ومن العرب أنفسهم : الغساسنة وغير الغساسنة . وهذا الخليط من الاجناس في الشام ربما هو الذى هياها من قديم لأن تكثرت فيها الدويلات والمدن المستقلة بعضها عن بعض .

وأخذ الإسلام سريعاً يضم هذا الشتات الجنسى في وحدة سياسية ، بل سرعان ما أصبح لواء الشام يضم العالم الإسلامى جميعه في وحدة عربية منذ رقى إلى عرش الخلافة معاوية مؤسس الدولة الأموية ، إذ اتخذ دمشق حاضرة لهذا العالم ، واتخذ من أهلها عوناً في الحكم وإدارة دفة الأمور في هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف . وبذلك كانت كنوز هذه الإمبراطورية تتدفق إلى دمشق والشام وعاش أهلها طوال العصر الأموى في رخاء لم يبلغه هذا الاقليم في أى عصر من عصوره .

ومر بنا وصف سريع لجغرافيتها وأنها كثيرة الأنهار والوديان والعيون والزرروع ، ومن قديم تنتج العنب والفواكه وصنوف الثقل من فستق وغير فستق إلى ماتنتج من قمح وغير قمح . ومن قديم أيضاً عنى أهلها بالصناعات : صناعات الخزف الملون والخشب المحفور أثاثاً وغير أثاث والمعادن والأسلحة سيوفاً وغير سيوف والزجاج الملون والقاشانى ونقش الفولاذ بالذهب والفضة ونسج الأقمشة والعمارة .

وحياة الشام بذلك كانت تقوم على إتقان كثير من الصناعات والزرروع ، وأيضاً على المهارة في التجارة ، وكانت نافذة كبرى لتبادل تجارات آسيا وأوروبا من قديم ، وظلت تجارتها تكون مصدراً أساسياً لثروتها في عهد الفينيقيين وبعدهم حتى احتلال العثمانيين لديارها ، فقد كانت من أعنى

في الشام محمد كرد على في الجزء الأول من محاضرات المجمع العلمى العربى بدمشق .

(١) انظر في مجتمع الشام كتب التاريخ العام وقروح البلدان للبلاذرى وأدب الكتاب للصوى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى والجباية

الأزمة إلى نهاية زمن المالك الباب الكبير لممرور توابل الهند وعروض آسيا إلى الغرب . ومهر أهلها في التجارة ومعرفة أسرارها والقدرة على إغراء الأسواق التجارية ومعرفة متطلباتها من لبنان جنوبي الجزيرة العربية ونباتات العطور والعقاقير ، مما أتاح لكثير من تجارها على مر الأزمنة الثراء الطائل . وتحف الشام في الشرق بوادي الجزيرة العربية ، وكان لذلك أثره البعيد في تكوين سكانها فأكثرهم نزحوا إليها قديما من الجزيرة على نحو ما هو معروف عن الكنعانيين والآراميين والعبرانيين ، وقد ظلت أبوابها الشرقية مفتوحة على مصاريحها لبدو الجزيرة ، مما جعل الفساسة يقيمون على الحدود بينها وبين الجزيرة دولتهم الغسانية . ولا يقفون هم ومن كانوا وراءهم من البدو عند الحدود بل يتغلغلون إلى داخل الشام ، حتى يمكن أن يقال إنه قد أخذ في التعرب قبل الإسلام . وظل بدو الجزيرة طوال الأزمنة الإسلامية يكوّنون شطرا مهما في سكان الشام ، وكان الشطر الثاني ، وهو الأكبر ، متحضرا ويقيم في المدن . وبذلك كان سكان الشام يتقسمون طوال الحقب الإسلامية إلى بدو وحضر . وكان البدو يعتمدون على الأغنام والأنعام ، بينما كان الحضري يعتمدون على الزراعة والصناعة والتجارة . وكان حكام مصر والشام يقرّبون زعماء البدو ، ولكي يدروا عن الشام شرمهم كانوا أحيانا يُقطعونهم بعض مدن فلسطين على نحو ما هو معروف من إقطاع الفاطميين للمفرّج بن دغفل مدينة الرملة .

على كل حال كان اعتماد الشام في حياتها الاقتصادية طوال الحقب الإسلامية على سكان الحضرة وما يؤدونه للدولة من الخراج والعشور والحوالي أو الجزية ، وكانت ضريبة محدودة قلما زادت عن دينارين ، وكانت تؤخذ من أهل الكتاب : النصارى واليهود نظير عدم انتظامهم في الجيش العربي . وهي بذلك كانت ضريبة دفاع ولم تكن تؤخذ إلا من القادرين ، أما النساء والأطفال والشيوخ والقساوسة والرهبان فلا تؤخذ منهم البتة .

وحين عقد عمر بن الخطاب مؤتمر الجابية سنة ١٦ للهجرة أوصى عماله أن يرققوا بالريعية فيما تؤدي من ضرائب للدولة ، وبلغ خراج الشام على عهده - كما يقول الصولي - خمسمائة ألف دينار . وبمجرد أن أصبحت الخلافة خالصة لمعاوية جعل خراج كل من دمشق وقنسرين أربعمئة وخمسين ألف دينار ، وخراج كل من فلسطين والأردن مائة وثمانين ألفا . وأخذ يهب بعض أصفياه إقطاعات واسعة ، وتارة يكون الإقطاع تملك ، وتارة يكون إقطاع استثمار ، وكان عثمان بن عفان أول من سنّ هذه السنة في الإسلام .

وجاءت معاوية كنوز الأرض فكان يكثر من توزيعها على الشخصيات المهمة في قريش

والأنصار وعلى زعماء القبائل في الجزيرة العربية والعراق ، وعُنى عناية واسعة بأهله ونفقاته . وبني لنفسه داراً كبيرة في دمشق سماها « الخضراء » ودورا أخرى في مكة ، وسنَّ للخلفاء الأمويين من بعده البذخ . ويروى أنه كان يستقبل من عماله هدايا العيدين الفارسيين : عيد النيروز وعيد المهرجان ، ولا بد أن كانت تقدم له الهدايا في أعياد النصارى لما انعقد بينه وبينهم من علاقة وثيقة ، ولما منحهم من الإشراف على الشؤون المالدولة ، وخاصة سر جيوس وأسرته ، وأيضا لابد أن كانت تقدم ل الهدايا في الأعياد الإسلامية .

ويبدو أن الدولة ظلت تنعم برخاء واسع بعد معاوية ، مما دفع الوليد بن عبد الملك إلى تشييد الجامع الأموى بصورة هندسية بالغة الفخامة في زخرفته وتصويره ، وقد استقدم - كما مر بنا - لصنع الفسيفساء في جدره وفصوصه اثني عشر ألف عامل من بيزنطة ، غير من استقدمهم في تشييده ونقشه من مصر وفارس ، وقد مثلت فيه أشجار وفرعت أغصان منظومة بالفصوص المذهبة ، ويقال إنه أنفق فيه خراج الشام ستين وكان خراجها على عهده مليون دينار ومائتي ألف ، وفي رواية أنه أنفق عليه أحد عشر مليوناً من الدنانير ومائتي ألف . وعُدَّ الجامع عجيبة من عجائب الدنيا ، وبه حظيت دمشق بمجد وشهرة عظيمين . ويبدو أن الوليد زاد ، بسبب هذه النفقة الباهظة على جامعہ ، الضرائب على أهل الشام ، أو لعل أخاه سليمان الذي خلفه هو الذي صنع ذلك . ويخلفه عمر بن عبد العزيز فيأمر عماله أن يأخذوا أهل الكتاب من النصارى واليهود بالرفق وأن تُمنع السخرة منعا باتا كما يمنع أخذ الضرائب على الجسور والمعابر وأن يكتفى في المعادن بالصدقة ولا يؤخذ منها العشر . وأمر أمرا صارما أن تُرفع الجزية عن أسلموا من الموالى بحيث يسوى بينهم وبين المسلمين في الخراج والعشور . ويتوقى عمر فيعود العمال إلى الضرائب الاستثنائية ظلما وعدوانا . ولا بد أن نذكر للأمويين أن الشام كانت تحظى برخاء غير قليل في أيامهم ، ويشهد بذلك ماشادوه في دمشق والبوادي من قصور ، وقد أصبحت دمشق بفضلهم عاصمة ومدينة عربية كبرى .

وكان المجتمع الشامي في دمشق وغير دمشق يتألف من ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا ، والطبقة الأولى تشمل الحكام وكبار الموظفين في الدواوين وأصحاب الثراء الطائل من التجار والإقطاعيين . وتشمل الطبقة الوسطى العلماء وأوساط الزراع والتجار والصناع ، أما الطبقة الدنيا فهي طبقة العامة من صغار الفلاحين والعمال . وكان يتبع هذه الطبقة الرقيق الذي يؤسر في الحروب أو يبيعه النخاسون ، وكان أخلاطا من البيزنطيين والأوربيين والإفريقيين . وظلت هذه

الصورة لطبقات المجتمع الشامي متصلة طوال الحقب التالية ، مع ما حدث للشام من تحول الخلافة منها إلى بغداد ، ومن مشرفة على الدولة الإسلامية الكبرى إلى ولاية منذ أن استولى العباسيون على أداة الحكم . وكان من أهم أعمالهم فيها إنشاء المراكز العسكرية على حدودها مع الروم المعروفة باسم العواصم والثغور ، وكانت جيوشهم ماتى تخرج منها لحرب الروم . محدثة فيها غير قليل من الرواج التجارى .

وكان العباسيون فى القرن الأول من خلافتهم يأخذونها بغير قليل من الرق واللين . ويروى أن بعض ولاة الخراج بها لعهد هرون الرشيد شدد فى استخراج الأموال من أهلها فسخط عليه الرشيد سخطا شديدا وأنزل به عقابا صارما ، قائلا له : وليت الشام وهى جنات وعيون وجعلتها أجردا من الصخر وأوحش من القفر . وحين ضمها ابن طولون إلى دولته فى مصر أخذت تتعش وخاصة فى عهد خجارويه لكثرة ما كان يُجرى على الناس فى رعيته بمصر والشام من الأموال ولما كان ينفقه على جيشه بها من الارزاق ، وقد بنى لنفسه بالقرب من دمشق قصرًا فخا . وعنى الإخشيد بالشام ، كما عنى بها كافور . وكانا يكثران من الخلع والهبات على أهلها ، وكانت حلب والثغور بيد الحمدانيين وفرضوا فيها ضرائب ثقيلة (١) .

وتتبع بقية الشام مصر أيام الفاطميين حقا متصلة . وعلى الرغم من أن المقدسى يقول إن ضرائب العروض والسلع التجارية فيها هينة لزمته فى أواخر القرن الرابع الهجرى فإن من المؤكد أن الضرائب زادت واضطربت تبعا لكثرة الولاة الفاطميين وعمل كل منهم على جمع كل ما يستطيع من الأموال لنفسه ، فكانت تدخل على الضرائب والجبايات زيادات ترهق الشعب الشامى إرهاقا شديدا . وبلغ هذا الارهاق غايته فى ولاية المعلى بن حيدرة الكتامى لها سنة ٤٦١ ، حتى هجر الفلاحون مزارعهم فى الغوطة بدمشق وغير الغوطة ، وعظم شغب العامة سخطا على هذا الظلم الصارخ وشبت النار حينئذ فى الجامع الأموى العظيم ، وكادت أن تذهب ببهائه ورونقه لولا أن تداركه الناس . ولعل أحدا لم يصور ما كان يقع على أهل الشام من ظلم فادح فى جمع الضرائب دون أن تُستخدَم فى مصالح الرعية كما صوّر ذلك أبو العلاء ساخطا بمثل قوله :

وأرى ملوكا لا تحوط رعيةً      فعلامٌ تؤخذُ جزيةً ومكوسُ

ومانصل إلى سنة ٤٦٨ حتى تتحول دمشق إلى السلاجقة ، وينحسر الحكم الفاطمى إلى

(١) اضطرت الحمدانيين إلى ذلك حروبهم مع بيزنطة .

ويقول المقدسى إن الضرائب كانت ثقيلة حينئذ على العواصم

والثغور وإنما كانت ثلاثمائة وستين ألف دينار .

الجنوب . ومانكاد نشرف على نهاية القرن الخامس حتى تآق جحافل الصليبين وتستولى على ساحل الشام منذ سنة ٤٩٢ . ويتدارك طغتكين أتابك الدولة البورية نسخة من النسخ القرآنية التي وزعها عمّان في الأمصار كانت بطبرية فينقلها إلى دمشق ، وكان ذلك عملا جليلا زاد دمشق مجدا وجلالا ، وخلص له الأمر بها . ومن أهم ما قام به بناء مارستان وخبانقاه وأول مدرسة أنشئت بها . وتصبح الشام ساحة حرب كبرى أيام الصليبين ، ولا يقر لأهلها قرار .

وأخذ حكام الشام من الأرتقيين أصحاب دمشق وغيرهم يضيفون بعض ضرائب استثنائية للجهاد الصليبين والإنفاق عليه . وكان طغتكين عادلا ، ولكن أبناءه أخذوا يرهقون الدمشقيين بالضرائب الاستثنائية وصنع صنيعهم حكام المدن الأخرى ، حتى إذا نهض عماد الدين زنكى واستولى على شمال الشام ، وكان قد أصبح خرابا من ظلم الولاة ومن حرب الصليبين ، نشر فيه العدل وفتح الرها وامتلاّت كل هذه البقاع أهلا وسكّانا .

وخلف عماد الدين زنكى ابنه نور الدين محمود، وحين خضعت له دمشق وحماة وبلبلك وغيرها من المدن الشمالية أبطل كل ما كان بها من الضرائب الاستثنائية على الأسواق وما يباع فيها من الفواكه والبقول والحلوى والغنم والحب واللبن . وسار نفس هذه السيرة بعده صلاح الدين فألقى جميع المكوس والمغارم من ديار الشام وسامح الناس في أموال عظيمة . ووزع في عماله منشورا جاء فيه : إن أشقى الأمراء من سمن كيسه ، وأهزل الخلق وأبعدهم من الله من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وعمّ الرخاء في عهده وعهد نور الدين ديار الشام لكثرة ما صبأ في حجور الناس من القناطر المقلطرة من أموال حملة الصليب المدحورين . وسار بعد صلاح الدين سيرته في حط المغارم عن كواهل الناس أخوه السلطان العادل ويقال إن مجموع ما خص دمشق من ذلك لعهده بلغ مائة ألف دينار . وقد عاد بعض هذه المغارم والمكوس في بعض بلدان الشام بأخرة من أيام الأيوبيين وخاصة في بلبلك ودمشق حين أظلمها حكم الصالح إسماعيل .

وقد يكون من المفارقات أن نعرف أنه على الرغم من الحروب التي كانت متصلة بين أهل الشام وحملة الصليب نشطت التجارة بينها نشاطا واسعا ، فتجار المسلمين يتزلون بلادهم وحصونهم وبالمثل يتزل حملة الصليب بلاد المسلمين حاملين لسلمهم ومشرّين سلعا جديدة . وكان الحرب شيء والتجارة شيء آخر ، ويعرض علينا أسامة بن منقذ في كتابه « الاعتبار » صورة لافتة من تواصل الحياة بين العرب المدينين والصليبين . ورأى ذلك ابن جبير رأى العيان ووصفه في رحلته المشهورة متعجبا قائلا : من أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفتيين : مسلمين

ونصارى ، وقد يلتقى الجمعان ويتقاتلون وتجارهم تختلف بينهم دون اعتراض ، وهكذا دائما أهل الحرب من الفتيين مشتغلون بحربهم ، والناس من ورائهم - كما يقول ابن جبير - في عافية : يتعاشون ويتبادلون السلع وعروض التجارة ، وكان حملة الصليب يرسلون ببعض هذه العروض في سفن لهم كانت تجوب البحر المتوسط والمحيط الأطلسي حتى السويد . وورثت الشام عنهم ذلك حين جلوا عنها فكانت تجاراتها تتغلغل في البلاد الأوربية .

ولم نعرض حتى الآن لما كان في المجتمع الشامي طوال هذه الحقب من فنون اللهو . وكان طبعاً والشام دائما حاملة للسيف أن يشيع فيها مبكرا سباق الخيل واللعب بالصوالجة والتنافس في إحسان الرماية . وكان أهلها يحارثون أحيانا بين الكباش والكلاب ، وكانوا يخرجون للصيد . وكانت أسواقهم تموج بالأقشة الحريرية وبالطيب والعطور . وعنى خلفاؤها الأمويون مبكرين بالغناء وبدأ ذلك منذ عبد الملك بن مروان الذي استقبل ابن مسجح مغنى مكة وغنّاه الغناء المتقن على نحو ما أشرنا إلى ذلك في كتابنا الشعر والغناء في المدينة ومكة واستقبل أيضا بُدَيْحًا واستمع إلى غنائه ، واستقبل ابنه الوليد بعده ابن سُرَيْج مغنى مكة . وتحول يزيد بن عبد الملك بقصره إلى مسرح لمغنى الحجاز من أمثال معبد وابن عائشة ، واشترى جاريتين من جواري المدينة المغنيات ، وهما حَبَابَة وسَلَامَة القَسّ ، ووصفه أبو حمزة الخارجمي ، فقال إنه يشرب الخمر ويلبس الحَلَّة قُومَتْ بألف دينار .. حَبَابَة عن يمينه وسلامة عن يساره . ونشأ ابنه الوليد في هذا الجو المشبع بالترف والخمر والغناء ، وكان شاعرا بارعا ، وله خمريات تكتظ بها ترجمته في كتاب الأغاني ، وحين استولى على مقاليد الخلافة بعد عمه هشام تحول بقصره إلى مقصف للخمر والعزف والغناء ، وندماؤه من حوله يشاركونه قصفة ولهوه وطربه ، وكاد أن لا يترك مغنيا مشهورا في المدينة أو مكة إلا استقدمه وعقد له في قصره مجالس للطرب والسماع ، ويقول أبو الفرج في ترجمته إنه « كان يضرب بالعود ويوقّع بالطلبل ويمشى بالدفّ على مذهب أهل الحجاز » .

ولا ريب في أن شيئا من ذلك كان ينعكس على أهل الشام في دمشق وغير دمشق . إذ يوجد في كل زمن منحرفون ينغمسون في اللهو والخمر وشرب الدّنان ، وكان يبيئ لهم ذلك في الشام كثرة ما يزرع فيها من كروم وكثرة ما كان بها من أديرة . وكانوا يشربون في الطبيعة بين الأزهار وغناء الطير وفي قاعات الأديرة والبيوت ، وكانوا يفرشون القاعات بالورود والزرجس والأقحوان والأزهار المختلفة . وكان يكثر في تلك المجالس سماع المغنين والمغنيات وهم يعزفون على آلات الطرب المختلفة . ويسوق ابنُ حَبَّة الحموي في كتابه ثمرات الأوراق خبرا طويلا عن جماعة من

كتاب القرن الرابع الهجرى كانوا قاصدين مصر . فتلوا بدمشق فى طريقهم ، والتقوا فيها بشاب أضافهم . فقبلوا الضيافة وأمضوا فى منزله ليلة ماجنة أحضر لهم فيها نبيذاً على عشايتهم ، فشرىوا ، وسرعان ماخرجت عليهم طائفة من الجوارى مابين عوادة وطنبورية وزامرة وصنّاجة ورقاصة ودقّافة وهن يلبسن فاخر الثياب والحلىّ وسأهم فى الصباح أتحبون الذهاب إلى بعض البساتين للتفرج أو الجلوس فى المنزل واللعب بالشطرنج والتّرد أو القراءة فى الكتب . والخير تداخله مبالغت تجعله أشبه بأسطورة ، لكنه على كل حال يدل على ماكان بدمشق من فنون هو .

ولا ريب فى أن حرب أهل الشام بعد ذلك مع حملة الصليب أتاح لهم كثرة من الجوارى الأوربيات المسترقّات . ويبدو أنهن كن سن عوامل شيوع البغاء ، إذ نقرأ فى تراجم نور الدين وصلاح الدين والعاقل أنهم طهروا البلاد من الفواحش والخمور والقمار . وكانت هناك دور النخاسين تحمل الجوارى من كل جنس وكل بلد . ويدل على كثرة الجوارى فى الشام من بعض الوجوه أن نجد فقها دمشقياً توفى سنة ٦٣٢ هو عبد السلام بن المطهر بن أبى عصرون يروى عنه أنه كان بيته نيف وعشرون جارية فما بالنّا بأهل الثراء وبالحكام وكبار الموظفين ذوى الرواتب الضخمة . ولم يقف المنحرفون بالجمتمع فى هوهم حينئذ عند شرب الخمر . فقد أخذ يشيع بينهم شرب الخسيس ، ولذلك أمر الظاهر بيبرس فى سنة ٦٦٥ بهدم دور الخسيس والخمر جميعاً وإقامة الحدود بشدة على من يتعاطونها . ومن حين إلى آخر نسمع عند بعض السلاطين بمثل هذا الأمر ، ولكن المجران كانوا يعودون إلى تعاطيها ولا يزدجرون . وظل الغناء مزدهراً طوال زمن المماليك ، ونجد مغنيا بدمشق يلزم واليا تنكر نائب الناصر محمد بن قلاوون ويخص به ويعلم جواريه الغناء ، وكان يعاصره شمس الدين دمشقى محمد بن على وكان يجيد العزف واللعب بالقانون وينظم الشعر ويلحنه ويأخذه عنه الملحنون وأهل الملاهى .

وظلت الشام تعيش فى رخاء إلى نهاية القرن الثامن الهجرى إلا فترات كانت تدب فيها وخاصة فى دمشق الفوضى بسبب ماكان يحدث فيها من نزاع بين الأمراء على السلطة كما حدث فى السنوات ٧٥٣ و٧٦٢ و٧٩٠ و٧٩٦ و٨٠١ ولعل هذا كان أحد العوامل فى انتصار تيمور لثك السريع على المدافعين عن حلب وما وراءها من البلدان إلى دمشق ، وقد عاث جنوده فيها - كما مرّ بنا - نهباً وسفكاً للدماء . وعلى الرغم من أن دمشق استسلمت له بميثاق أو عهد أخذه على نفسه أن لايمس أهلها بأذى لم يكده يدخلها مع جنده حتى نكث عهده وميثاقه فسبى جنوده النساء وشدوا الرجال والأولاد فى حبال وأشعلوا النار فى المنازل والدور والمساجد ثلاثة أيام فاحترقت المدينة ، وسقطت

سقوف الجامع الأموي وصارت دمشق أطلالا عافية أو بالية ، بعد أن كانت فردوسا من فراديس الجنان ، وهي طامة كبرى ظلت دمشق تعاني منها طويلا . وزاد تيمور لنك الطين بلة بتجريد دمشق - كما مررنا من صفوة صناعاتها ومهندسيها ، إذ أخذهم معه الى عاصمته سمرقند . وحاول سلاطين المماليك بعد خروجه من دمشق لحرب السلاجقة في آسيا الصغرى أن يعيدوا لدمشق والشام شيئا من الرخاء بإلغاء المغارم والمكوس وكل ما كان يبهظهم من الضرائب الاستثنائية .

واستعادت دمشق مبانيها وعمارتها بعد تيمور ، ولا بد أنها ظلت تعاني من خسائر الحريق وأنقاض عائلها الباذخة فترة طويلة . وسرعان ما نسمع أنه أصبح بها مائة حمام . وشاد حكامها فيها قصورا فخمة على مر السنين ، واتسع ذلك في بلدان الشام جميعا : من حلب شمالا إلى غزة جنوبا ، وبدأ ذلك منذ أوائل عهدها بالاسلام لزمان الأمويين ، فإن خلفاءهم وأمرأهم وبعض نسايمهم شادوا في دمشق لأنفسهم قصورا باذخة ، وامتد ذلك إلى حلب وغير حلب من مدن الشام وإلى البوادي . وظلت هذه العناية بتشيد القصور لحكام الشام على مر السنين ، ومررنا أن خوارويه بنى لنفسه بجوار دمشق قصراً ، وتتابع بناء حكام دمشق وبلدان الشام للقصور ، سوى ما كانوا ينون من المساجد والخانقاهات والمراستانات والمدارس . وتحدث المؤرخون طويلا عن قصر أنيق بدمشق بناه الظاهر بيبرس . وعنى الصليبيون ببناء الحصون كما عنى الأيوبيون والمماليك ببناء المساجد والمدارس والرباطات والمراستانات والقلاع والجسور وكان لكل ذلك أثر واسع في نشاط الحياة بالشام ورواج الصناعة والتجارة .

وترزح الشام - كما رزحت مصر - تحت حكم العثمانيين ، ويظنون بها أربعة قرون ، ويتقوض كل أمل لأهل الشام في تدارك الأمور ، وبدأ ذلك الغزالي نائب سليم بما أخذ يفرض على أهل الشام من ضرائب ثقيلة ، وزال حكمه ، كما مررنا ، وظلت المكوس تزداد وظلت البلاد تتردى من سيىء إلى أسوأ إذ دأب العثمانيون على التغيير السريع لحكامهم في البلاد ، ودأب الحكام على اعتصار خيراتها حتى آخر قطرة . وكانت الدولة العثمانية تدفع إلى استنزاف كل ما في ديار الشام من أموال وظلموا الناس أشد ظلم ، بل نهبهم أعسف نهب وابتزوا أموالهم أسوأ ابتزاز . وهياً ذلك لمظالم لاتطاق في المدن بين الصناع والتجار وفي القرى بين الزراع ، مما جعل بعض الفلاحين يفرون من قرأهم إلى الجبال أو ينزلون عن ممتلكاتهم فيها إلى بعض ذوى الجاه مفضلين أن يعيشوا فقراء على معيشة الحرية التعمه المتهكة . وانتكست بذلك الزراعة ، ولم تعد هناك عناية بإنتاج القطن

والحرير ، فانتكست أيضا الصناعة والتجارة . وزاد في انتكاس التجارة اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح واستعمارهم للهند وحملهم عرُوضها وتوابلها عن هذا الطريق مستغنين بذلك عن طريق الشام ومصر القديم . وبذلك فقدت الشام في أيام العثمانيين موردا ماليا ضخما كان على رأس مواردها التي أتاحت لحكامها بناء منشآتهم المعمارية الكثيرة من الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد والمدارس . وعم الكساد الشام طوال الحقب العثمانية . بل عم البؤس والظلم والخراب ، كما عمت الفوضى الإدارية ، وكلما تقدمنا دورة زمنية مع الحكم العثماني ازدادت الشام انتكاسا وفسادا وظل ذلك سائدا طوال زمن العثمانيين حتى القرن التاسع عشر بل حتى نهاية حكمهم .



التشيع : الإسماعيلية والإمامية - النصرية - الدرّوز - الإسماعيلية النزارية أو الفداوية أو الحمشاشين .

#### (١) الإسماعيلية والإمامية

مرّ بنا - في كتاب العصر العباسي الثاني - أن عبد الله بن ميمون القداح اتخذ سَلْمِيَةَ قرب حِجَاة بالشام حوالي منتصف القرن الثالث الهجري مركزا للدعوة الإسماعيلية التي كانت تجعل الإمامة بعد جعفر الصادق في ابنه إسماعيل لا في ابنه موسى الكاظم مخالفين بذلك فرقة الإمامية الاثني عشرية الشيعية . وانتقلت بعد إسماعيل في أئمة مستورين ، إلى أن قرّ المهدي بالله من سلمية إلى تونس وأسس هناك الدولة الفاطمية وصار إليها حكم مصر والشام منذ أواسط القرن الرابع الهجري . ونشط دعواتهم في الديار الشامية يدعون إلى عقيدتهم التي تقصر إمامة المسلمين على أبناء علي بن أبي طالب من السيدة فاطمة الزهراء ، زاعمة لهم العصمة وحق تأويل الذكر الحكيم ومعرفة أسرارهِ ، ولذلك سمو باسم الباطنية ، وزعموا أن الأئمة يتوالون في أدوار كل دور يتألف من سبعة منهم ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلي وإليه تنتقل قدرة الله وعنه تصدر النفوس الكلية للأئمة الستة قبله ، وأطلقوا اسم الذات العلية وكل صفات الله على أئمتهم .

وعرفت الشام بجانب العقيدة الإسماعيلية العقيدة الإمامية أو الاثنا عشرية التي يتوالى في الإمامة بها عندهم اثنا عشر إماما يجتمون بالإمام أبي القاسم محمد الذي اختفى وهو في الثامنة من

عمره حوالي سنة ٢٦٠ ويؤمنون بأنه لا يزال حيا باقيا وأنه لا بد من عودته يوما أو رجعه ليهدي الناس إلى طريق الرشاد ويعيد سنن الرسول ﷺ ويرد حق أسرته المسلوب ويملا الدنيا حقا وعدلا ، ويسمونه في أثناء غيبته الجسدية قائم الزمان وإمام الوقت . وهو بذلك كله المهدي المنتظر الذي ينقذ العالم من مفسده وشروره . وعند الإمامية أن أئمتهم وحدهم يتميزون بمعرفة المعاني الباطنة أو المستترة وراء ظاهر النصوص القرآنية ، ولذلك يعد التأويل من أسس العقيدة الإمامية ، ويرون أئمتهم فوق الطبيعة البشرية ، ولذلك يعتقدون فيهم العصمة وأنهم مطهرون لا يستهويهم أى ضرب من ضرب المعاصي والآثام .

وإذا كان مركز العقيدة الإسماعيلية منذ أوائل هذا العصر في القرن الرابع مصر فإن مركز العقيدة الإمامية كان العراق وإيران . وكان قرب معتنقيها من الشام سببا في أن يدخلها كثيرون منه منذ وقت مبكر وكانوا يبتغون في حلب وأيضا بين بعلبك وصفد ، ويسمون باسم المتواليه الإمامية ومنهم أمراء حرفوش . ونقف لتحدث عن فرق شيعية غالية هي فرق النصيرية والدروز والإسماعيلية النزارية المسمون بالفداوية والحشاشين .

### (ب) النَّصِيرِيَّةُ<sup>(١)</sup>

فرقة شيعية غالية غلوا مفرطاً ، ولم تكن تتبع الفرقة الإسماعيلية ، بل كانت تتبع الفرقة الإمامية الاثني عشرية ، أو قل إنها تفرعت منها ، وكانت تسكن في قرى بسفوح الجبال الممتدة من طرابلس إلى أنطاكية أنشأها فيها داعية يسمى محمد بن نصير النصيري زعم لم أنه مبعوث الإمام الحادي عشر حسن العسكري وأخذ ينشر فيهم عقيدته منفصلا بها عن العقيدة الإمامية إذ جعل مبدأها أو محورها الأساسى ألوهية على بن أبي طالب وأنه خالد في طبيعته الإلهية ومسكنه السحاب ، والرعد إنما هو صوته الهائل ، والبرق إنما هو ضحكه العالى ، ولا يلغنون ابن ملجم قاتله ، بل يقولون إنه خلص اللاهوت أو الجزء الإلهي من الناسوت أو الجسم المادى ، ويعظمون الخمر ويرونها من النور الإلهي ، ويحتفلون بالأعياد المسيحية ويزعمون أن سلمان الفارسي إنما كان رسولا لعلي بن أبي طالب ، ويحلفون بعلي قائلين : وحق على العلى الأعلى ، كما يحلفون بالنور

(١) ديارهم بالشام عن عقيدتهم وكتاب العقيدة والشرية في الإسلام لجولدستهير ص ٢٢٠ وما بعدها وتاريخ النصيرية وديانتهم لدوسو طبع باريس .

(١) انظر في النصيرية فرق الشيعة للنونخى والملل والتحليل للشهرستاني وصبح الأعشى ٣٥/١٣ ، ٢٤٩ ، والتعريف لابن فضل الله العمري ورحلة ابن بطوطة وحديثه فيها حين زار

قائلين وحق النور وما نشأ منه . وواضح أنه تختلط بعقيدتهم عناصر فارسية كعنصر النور وعناصر مسيحية كعنصر قداس الخمر والطعام وهو شبيه بالعشاء الرباني ، ويروون عن الرسول ﷺ أنه قال لعلي : « لولا أن يقول الناس فيك ما قالوا في عيسى لقلت فيك مقالا » وهو حديث موضوع . ويقول النونخي في فرق الشيعة وابن فضل الله في التعريف إنهم يحلون الحارم ، وهم كتاب مقدس يخفونه عن الناس كما يخفون عقيدتهم ولا يبيحون لأحد منهم أن يذيع شيئا من مبادئها وأسرارها المصونة عندهم . ويقول الشهرستاني إنهم يقولون بأن عليا كان موجودا قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه . ولكل ماسبق قال جولد تسيهر : « تغلب على تلك الفرقة أفكار وعقائد وثنية » ويقول « إن إسلامها إسلام اسمي فحسب » . ونظن ظنا أن استيلاء الفاطميين على الشام ونشر دعواتهم لنحلهم الغالية المفرطة في الغلو هناك . ثم ما كان من انشغال الأيوبيين بحربهم لحملة الصليب ، كل ذلك كان سببا في اتساع حركتهم حتى إذا كان عهد الناصر بن قلاوون رأيناه يكتب في سنة ٧١٧ للهجرة إلى ولاته في الشام أن يأخذوا على أيديهم، ويأمرهم أن يعمرُوا في كل قرية من قراهم مسجدا وأن يحوا منها الخمر وكل ما يتصل بالآثام، وصدعت قراهم لأمره .

### (ج) الدرروز<sup>(١)</sup>

الدرروز فرقة شيعية تفرعت عن الفرقة الإسماعيلية الكبرى ، آمنت بأن التجسد الإلهي حل في الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) أسسها أو أنشأها بالشام داع إسماعيلي أعجمي من دعاة الحاكم يسمى محمد بن إسماعيل الدرزي ، وكان من غلاة الدعاة الباطنية يؤمن بالتناسخ ، فأغوى الحاكم على ادعاء هذا التجسد ، وصُف له كتابا ذكر فيه أن روح الله مازالت تنتقل من رسول إلى رسول ، وبعد النبي ﷺ انتقلت إلى علي بن أبي طالب وتناسخت في الأئمة من أبنائه حتى انتهت إلى الحاكم ، فهو ليس بشرا ، إنما هو لاهوت تجسد في الناسوت . وعلمت الرعية في مصر بما يوسوس له الدرزي فصممت على قتله ، وأنقذه منها الحاكم وقال له اخرج إلى الشام وانشر دعوتك في الجبال فإن أهلها سريعو الانقياد ، فخرج إلى الشام ونزل في قبيلة تنوخ بوادي التيم من

وجولد تسيهر ص ٢١٦

(١) راجع في الدرروز صبح الأعشى ٢٤٨/١٣ وكتاب

طائفة الدرروز : تاريخها وعقائدها للدكتور محمد كامل حسين

وديان قرية بانياس غربى دمشق ، وأخذ ينشر دعوته فى منازل تلك القبيلة بجبل حوران وأبضا فى القسم الجبلى من لبنان . وتوفى فقام بالدعوة بعده حمزة بن أحمد الهادى وكثر أتباعها وعُرفوا بالدروز نسبة إلى مؤسس الدعوة . وانتشارها على هذا النحو فى جبل لبنان وحوران بسوريا جعلها تدبغ بين قبائل وعشائر عربية ، وسقطت إلى الجنوب حتى جبل كَرَمَل بالقرب من صَفَد فى فلسطين ، وصعدت إلى الشمال حتى الجبل الأعلى بين حلب وأنطاكية . وأتاح لها ذلك أن تشيع بين عرب ذوى بأس وأهل شجاعة ، ومنذ وطئت أقدام الصليبيين الشام وضعوا أيديهم فى أيدي الدولة البورية صاحبة دمشق ثم فى أيدي عماد الدين زنكى ونور الدين وصلاح الدين ضد حملة الصليب . وظلوا يجاهدونهم فى زمن الأيوبيين والمماليك متعاونين أوثق تعاون مع سلاطين الدولتين فى طردهم من الشام . وأبلاوا بلاء حسنا فى حرب التتار . ولعل ذلك هو الذى دفع الدولتين إلى مسالمتهم والإبقاء عليهم مع إقرارهم على إقطاعاتهم ، حتى يظلوا عُصَّة فى حلوق أعداء الإسلام والعروبة .

ولديهم رسائل مقدسة لمؤسس دعوتهم محمد بن إسماعيل الدرزى وخليفته حمزة بن أحمد وتلميذه بهاء الدين . ويردد حمزة أن للحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لا تدرکها الحواس ولا الأوهام ، ويقول إنه ليس له مكان وإن حل فى كل مكان . وحاول هو وأستاذه الدرزى وتلميذه بهاء الدين أن يقنعوا الناس من حولهم بأن الحاكم تجسّدُ إلهى وأنه يتشكل فى صورة بشرية هى الصورة الإنسانية التى عاش بها مع الناس كأنه فرد مثلهم . وليس الحاكم أول صورة بشرية تشكل فيها الله بل هو آخر صورة تجسد فيها ، فقد تجسد قبله فى الأنبياء والأئمة مما يفسح عند الدروز لفكرة التناسخ . ويصور الفلقشندي عقيدتهم قائلا : « إنهم يقولون بأن الألوهية انتهت إلى الحاكم وتديرت (سكنت) ناسوته كما يقولون برجعت وإنه يغيب ويظهر بهيته ويقتل أعداءه قتل إبادة لامعاد بعده إذ ينكرون المعاد » . فلامعاد عندهم ولابعث ولاقيامة ، إذ القيامة فى رأيهم يوم رجعة الحاكم وظهوره فى صورته اناسوتية ، وحينئذ يوقع العذاب والثواب على الناس ، أما الثواب فارتراف بالدرجة فى العلوم الدينية ، وأما العذاب فهب بالدرجة إذ يستمر الشخص ينتقل من جسد إلى جسد أو قل تستمر روحه تنتقل فى أجساد تهبط به فى الدين درجة بعد درجة .

وتُسقط شريعة الدروز الفروض الدينية وتوجب صيام الأيام التسعة الأولى من شهر ذى

الحجة ، ويقول القلقشندى إنهم يذهبون مذهب الطبايعية في قولهم إن الطبايع هي المولدة ، والموت بفساد الحرارة الغريزية كانطفاء السراج بفساد الزيت ، ويقول : إنهم زادوا في البسمة أيام الحاكم : باسم الحاكم الله الرحمن الرحيم ، ثم جعلوها باسم الله الحاكم الرحمن الرحيم . ولهم أدعية خاصة يتجهون بها إلى ربهم ، من ذلك ما نقله الدكتور محمد كامل حسين من رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد لحمزة بن أحمد من مثل : « سبحان مولانا جل ذكره عن إحاطة الأشياء به وعز سلطانه عن حكومة الألسن والأوهام عليه لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

على أنه ينبغي أن نعود فنذكر أن عقيدة الدرروز أصابها بعض التعديل في فروعها بما يتلاءم والإسلام ومن أهم من عملوا على ذلك عبد الله التنوخي الملقب بالسيد المتوفى سنة ٨٨٤ وقد حاول العودة بهم إلى مذهب الجماعة .

### (د) الإسماعيلية<sup>(١)</sup> النزارية أو الفداوية أو الخشاشون

مرُّبنا في الحديث عن التشيع بإيران في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي أن داعية من دعاة الحركة الإسماعيلية الفاطمية بإيران هو الحسن بن الصباح زار مصر لعهد المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) وسأله من الخليفة بعدك؟ فقال له : أبني نزار ، فعاد إلى إيران يدعو للمستنصر وابنه نزار ، واستطاع مع طائفة من أتباعه أن يستولى على قلعة « الموت » الجبلية الشاهقة ، واتسعت دعوته حتى ضم إليه قلاعا وحصونا كثيرة بإيران وبعض بلدانها في قزوين وطبرستان . وكانت الأمور تتطور بالقاهرة فتوفى المستنصر ورأى الأفضل بن بدر الجمالي أن لا يولى نزارا بعده وإنما يولى أخاه المستعلى . وبذلك انقسمت الإسماعيلية الفاطمية قسمين : قسما عربيا في مصر والشام بيده مقاليد الحكم يدعو للمستعلى وقسما شرقيا في إيران يمثلها الحسن بن الصباح يدعو لنزار .

واستطاع الحسن بن الصباح أن يحول فرقته أو طائفة كبيرة منها إلى فرقة إرهابية مهمتها اغتيال خصوم الدعوة من حكام الأقاليم والدول ووزرائهم ومن العلماء والفقهاء المناوئين لها ، وكان ممن اغتالوه الوزير السلجوقي العظيم نظام الملك سنة ٤٨٤ . ومن أجل ذلك أطلق على اسم هذه الفرقة

(١) ٣٥٥ ، ٣٦٦ وكتاب طائفة الإسماعيلية : تاريخها . نظمها .

عقائدنا للدكتور محمد كامل حسين .

(١) انظر في هذه الفرقة وقلاعها بالشام ونشأتها صبيح

الأعشى ١٢١/١ و١٤٦/٤ و١٧٩ ورحلتي ابن جبير وابن

بطوطة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٨٢ ،

اسم الفدائيين أو الفداوية كما غلب اسم الحشاشين لأنهم - فيما يظهر - كانوا يتعاطون الحشيش المخدر. وعمل الحسن بن الصباح على نشر الدعوة الإسماعيلية لافي أقاليم إيران فحسب ، بل أيضا في إقليم الشام ، فأرسل إليها دعائه ، وبادر بإرساله الحكيم المنجم أسعد إلى حلب في أيام حاكمها رضوان بن تمش السلجوقي (٤٨٨ - ٥٠٧ هـ) فنشر بها الدعوة وكثر أتباعه وأوعز إلى بعض الحشاشين معه باغتيال جناح الدولة صاحب حمص ، واغتيل سنة ٤٩٦ . ووفد على حلب داعية ثان للحسن بن الصباح هو أبوطاهر واستولى مع شيعته على حصن فامية من الصليبيين ثم استرده منه . وأخذ الفدائيون من فرقة ابن الصباح يفتدون على الموصل والشام واغتالوا في سنة ٥٢٠ صاحب الموصل آق سنقر . وفي نفس السنة وفد على دمشق نزارى من الموت ، وتقرب من طغتكين صاحبها ، وتنازل له عن قلعة بانياس فأخذ يدير دعوته منها ، وكثر أتباعه ، وأدخل المردغانى وزير بورى (٥٢٢ - ٥٢٦) في دعوته فعيّن أحد رجاله ، وهو أبو الوفا قاضيا لقضاة دمشق . وبعث أبو الوفاء سرا لبلدوين الثاني صاحب بيت المقدس أنه على استعداد لتمكينه من الاستيلاء على دمشق في نظير تنازله له عن صور ، وقدم حملة الصليب إلى دمشق سنة ٥٢٤ لتنفيذ المؤامرة وفتن بورى فقتل أبا الوفاء ووزيره المردغانى ، ورد الله حملة الصليب عن دمشق مدحورين .

وأخذ الإسماعيليون التزاريون في بانياس يمتكون لأنفسهم بالاستيلاء على طائفة من القلاع في السفوح الشرقية لجبال النصيرية بالقرب من طرابلس إلى الشمال بينها وبين حماة ، حتى إذا خلص الأمر لرشيد الدين سنان منذ سنة ٥٥٨ أخذ ينظم هذه الجماعة الإرهابية الخطيرة جاعلا من قلاعها وهى مصياف والرصافة وقدموس والحوائى والكهف والميتقة والعليقة ، مركزا للدعوة . ويعدّ دوره في الدعوة بالشام كدور الحسن بن الصباح في إيران ، فقد ضاعف تحصينات قلاعها وزودها بالسلاح والعتاد ، وكان سنان مباينا لنور الدين ولم يحاول أن يساعده في حربه لحملة الصليب ، وفكر نور الدين في منازلته ولكنه توفى قبل تحقيق فكرته . وبالمثل كانت بين سنان وصلاح الدين مباينة ، وأرسل إليه بعض فدائييه أو حشاشيه مرتين ليقتالوه ونجّى الله صلاح الدين من خناجرهم ، وجرد لهم في سنة ٥٧٢ جيشا جرارا حاصره قلاعهم وضيق عليهم ، فسألوه الصفع عنهم ، فأجابهم إلى ذلك ليتضرغ سريعا لحرب حملة الصليب مؤملا أن يمدوا له يد العون في تلك الحرب ، وكانوا قد وعدوه أن يقفوا معه ضدهم ، فلم يتعرض صلاح الدين بعد ذلك لقلاعهم .

ونمضى معهم إلى أيام هجوم التتار على الشام فنجد داعيتهم أبا المعالي رضى الدين يرضخ لهم ويسلمهم بعض القلاع سنة ٦٥٨ بينما ظل الدرود يقاومون التتار - كما مرّ بنا - ولعل ذلك ما جعل الظاهر بيبرس بعد قضائه على التتار يفكر في الاستيلاء على قلاعهم منذ سنة ٦٦٤ وسرعان ما أعلنوا له الطاعة وأنهم جزء من رعيته . وفى سنة ٦٦٩ عزل داعيتهم نجم الدين وولى مكانه داعية ثانيا يسمى صارم الدين ، غير أنه أعلن الثورة عليه ، وسرعان ما أخضقت ثورته . وأخذ الظاهر بيبرس يستولى على قلاعهم حتى سلمت له وخضعت جميعا ، ولم يعتمد إلى إجلائهم عن قلاعهم كما صنع هولاء حين استولى على قلعة الموت وغيرها من قلاعهم بليزان ، بل أبى عليهم ليفيد من سفاهتهم في القضاء على خصومه . وظل سلاطين المماليك بعده يستخدمونهم لنفس الغاية .

ويسجل ذلك ابن بطوطة حين زار حصونهم لعهد الناصر بن قلاوون سنة ٧٢٧ إذ يقول : « وهذه الحصون لطائفة يقال لها الإسماعيلية ، ويقال لهم الفداوية ، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه ، ولهم المرتبات ، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه دية ، فإن سلم بعد تأدية ما يراد منه فهي له ، وإن أصيب فهي لولده » . ويقول القلقشندي نقلا عن ابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة : « ولصاحب مصر بمشايعة الفداوية مزية يخافه بها عدوه ، لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يبالي أن يُقتل بعده ، ومن بعثه السلطان إلى عدو له فحين عن قتلته قتل أهله إذا عاد إليهم ، وإن هرب تبعوه وقتلوه » . وبالقاهرة جامع منسوب إلى هذه الجماعة الإرهابية يسمى جامع الفداوية ، ويقال إن الفداوى الإرهابى الخطير الذى كان يعتمد عليه بيبرس هو « شبيحة » المدفون بدمياط .

## الزهد (١) والتصوف

الشام - من قديم - بلد دين سماوى ، بل دينين سماويين هما اليهودية والمسيحية ، مما جعل لها تأثيراً بعيداً في تاريخ العالم الروحى ، إذ عملت بقوة على نقله من دور الوثنية إلى دور الديانات السماوية ، وبدأ ذلك منذ أعتق الأزمنة ونقصد زمن إبراهيم الخليل عليه السلام الذى آمن بوحداية الله ، وحاول أن يحمل عليها قومه ، وتتابعت بعده الرسل تؤكد دعوته وتدعو إلى عبادة الله وإعلاء القيم الروحية ، حتى إذا كانت المسيحية وأدخلت فيها مصر نظام الرهبنة والمعيشة الخالصة لتعبد الله والنسك فى الأديرة والصوامع عمّت هذه الروح فى الشام واعتزل كثيرون منه - فى أيام الرومان الظالمة - الحياة اليومية العاملة إلى الرهبنة . وتعتقت كثرة السكان فى الشام الدين الخفيف ويقبلون على تعاليمه وعبادة الله الواحد الأحد حق عبادته وعلى ماتدفع إليه من النسك والتقوى ، مقتدين بمن نزل بينهم من جلة الصحابة وبخاصة من أهل الصفة الذين كانوا يلازمون المسجد النبوى مقبلين على عبادة الله زاهدين فى الدنيا ومتاعها الزائل من أمثال بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ وأبى عبيدة فاتح الشام مع خالد بن الوليد ، وكان على غرارهما زهدا فى الدنيا معاذ بن جبل المتوفى مع أبى عبيدة فى سنة ١٨ للهجرة بطاعون عمواس ، ويؤثر عنه أنه كان يقول حين نزل به القضاء : « مرحبا بالموت ، مرحبا بزائر حبيب جاء على فاقة ، اللهم إنك تعلم أنى كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، وإنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكزى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن نظماً الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلقات الذكر » .

والسلوك للمقريزى والدرر لابن حجر والأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الخاص بمدينة دمشق (تحقيق د. سامى الدهان) ووفيات الأعيان ووفيات الصوفية فى تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تغرى بردى والبدر الطالع للشوكافى وروض الرياحين لليافى وخلصة الأثر للمحجى وسلك الدرر للمرادى وتاريخ الجبىرى وجولد تسيير ودائرة المعارف الإسلامية والجزء الرابع من تاريخ الأدب العربى لبيوكلمان

(١) انظر فى الزهد والتصوف بالشام كتب تراجم الصحابة ، وبخاصة من سميانهم ، وراجع فى معاذ تهذيب النورى وفى أبى الدرداء البيان والتبين للجاحظ : الجزء الثالث (انظر الفهرس) وانظر فى الأسماء التالية طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى والطبقات الكبرى للشعرانى والرسالة القشيرية (طبعة عبدالحميد محمود) وكشف المحجوب للمهجورى (الترجمة العربية) وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر وأحسن التقيس للمقلىسى

وعلى شاكلة معاذ في الورع والتقوى من صحابة رسول الله ﷺ الذين هاجروا إلى الشام أبو الدرداء الأنصاري ، وهو أحد حفظة القرآن الكريم لعهد الرسول وأول من تقلد القضاء بدمشق إلى أن توفي سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ، وهو من أهل الصفة الأتقياء ، ويروى الجاحظ عنه أنه كان يقول « نعم صومعة المؤمن منزل يكف فيه نفسه وبصره ، وإياكم والجلوس في الأسواق فإنها تلهي وتحمل على اللغو في الكلام » ويروى عنه أيضا قوله : « أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث : أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لأيقفل عنه ، وضاحك ملء فيه ولا يدري ساخط ربه أم راض ، وأبكاني هول المطلع <sup>(١)</sup> ، وانقطاع العمل ، وموقف بين يدي الله لأيدري أيومر بي إلى الجنة أم إلى النار . وأخذ يتكاثر بعد جيل الصحابة في الشام العباد والأتقياء وملتقى بهم في كل طائفة : في القضاة والفقهاء والمحدثين وقراء الذكر الحكيم .

واتسع ذلك حتى شمل بعض الحكام على نحو ما هو معروف عن الخليفة عمر بن عبدالعزيز وهو يمثل نموذج الحاكم المتقشف الزاهد الذي يحشى الله في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل ، ومربنا أنه رفع المكوس وضرائب السدود والمعابر عن الناس وأنه سوى بين المسلمين الجدد من الموالى والمسلمين من العرب فحط عنهم - مثلهم الجزية - واكتفى بالزكاة . وكتب إليه أحد عماله : إن أهل الذمة قد أقبلوا على الإسلام حتى يتخلصوا من الجزية ، فأجابه : إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه جانيا . ويفيض ابن سعد في ترجمته له بطبقاته في بيان زهده ورفضه لمناجع الجباة من رقيق يملكه ومن عطر يتطيب به . وعمل بكل جهده على نشر العدل في دولته ورفع المظالم عن الناس . وكان يجهد نفسه في النسك والتعب حتى اصفر لونه ونحل جسمه ، وأنكر منه بعض الزهاد ممن كانوا يلمون به ذلك فقال له : كيف بك لو رأيتني في قبري وقد سالت الحدقتان - بعد ثلاث ليال - على وجنتي وتقلصت الشفتان لكنت إذن أشد نكرا . وطبيعي أن يكون عمر من أسباب اتساع موجة الزهد في الشام . ونكتفي بذكر بعض من توجع بهم كسب القراء والفقهاء والتاريخ من هؤلاء الزهاد العباد . من ذلك ما يقولونه عن شيبان الراعي المتوفى سنة ١٥٨ وكان من كبار الفقهاء الزهاد وكان من أكابر أهل دمشق وعكف على النسك ، وبلغ به ذلك أن ترك الدنيا واتخذ له صومعة في جبل لبنان فانقطع بها يتعبد الله .

ونسجع كثيرا عن عباد انقطعوا بهذا الجبل مؤثرين الإقامة به للتعبد <sup>(٢)</sup> ، ومنهم من كان يتعبد الله في جبال أنطاكية والمصيصة ، ومنهم من يتخذ الصوامع ، وظل ذلك متبعا حتى زمن ابن

(٢) راجع مقدمة أحسن التقاسم للمقدسي .

جبير<sup>(١)</sup> . وكان منهم من لا يبعد عن دمشق إلى الجبال النائية مثل فهر بن جابر الطائي المتوفى عام ٢٢٠ فإنه لما بلغ الخمسين من عمره اعتزل الناس بجوار دمشق ، وأخلص نفسه للتقوى والنسك ، وله في الزهد كتاب سماه : « العروج في درج الكمال والخروج من درك الضلال » . وولتقى بمعاصره أبي سليمان الداراني عبدالرحمن بن أحمد بن عطية المتوفى سنة ٢١٥ وقبه يقول ابن تغرى بردى : « كان من واسط وتحول إلى الشام ونزل قرية دَارِيَا غربي دمشق ، وكان إماما حافظا كبير الشأن في علوم الحقائق والورع أثنى عليه الأئمة ، وكان له الرياضات والسياحات ، ويقول الهجويري : « كان ريحانة القلوب ، اختص بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة » . وتسلكه كتب الصوفية ، في تراجمهم . ولم يكن التصوف حتى زمنه استقل عن الزهد بأحواله ومقاماته ، فهو إلى أن يكون زاهداً أقرب منه إلى أن يكون متصوفاً . وحمل عنه نزعة النسكية تلميذان أو مريدان ، هما أحمد ابن عاصم الأنطاكي وابن أبي الحواري الدمشقي ، أما ابن عاصم فتوفى بعد أستاذه بـخمسة سنوات ، ويسلكه المتصوفة بين أوائلهم ويقولون إنه كان يجمع بين الأصول والفروع في الشريعة ، وكان يقول : « أنفع الفقر ما كنت به متجملا وعنه راضيا » ويذكر بروكلمان له كتابا في الزهد سماه « دواء القلوب ومعرفة هم النفس وآدابها » ويقول إن الغزالي ينقل عن هذا الكتاب كثيرا . وتلميذ الداراني الثاني أو مريده ابن أبي الحواري أحمد توفى سنة ٢٣٠ وكان من بيت زهد ، فأبوه من الورعين وكذلك ابنه عبدالله ، وذُكر عند الجنيد متصوف بغداد فقال : « ريحانة الشام » . وكان يعاصره الشيخ أبو عبيد وان عابدا تقيا صالحا توفى سنة ٢٣٨ وقد وهب نفسه للغزو وجهاد أعداء الله .

ونلتقى في طرسوس دار حرب الروم بالشيخ أبي الحارث الفيض بن الخضر الأولاسي المتوفى سنة ٢٩٧ وكان أحد الزهاد العباد وله إشارات ولسان حلو وأقوال عالية ، وهو منسوب إلى أولاس في نواحي طرسوس ، وكان بها حصن يسمى حصن الزهاد ، وكأنما اتخذوه رباطا لحرب أعداء الإسلام . وهو شاهد على ما قلناه مرارا في كتاباتنا من أن زهادنا ومتصوفتنا كانوا دائما يرون من تمام تصوفهم وزهدهم أن يجاهدوا العدو ويرابطوا له في الثغور ، حتى إذا كان نفير الحرب تقدموا الصفوف يقتلون أعداء الدين الحنيف ويستشهدون . وكان يعاصره الأولاسي أحمد بن يحيى

(١) متى سُمّ للمقام يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودي (شمال الموصل) فيلقى بها المريدتين المنقطعين إلى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء .

(١) يقول ابن جبير في كلامه عن دمشق سنة ٥٧٨ كان الحير يتنقل على الغرباء من الخطباء والمعلمين لاق دمشق وحدها بل أيضا في القرى والضياع ، ومن سُمّ للمقام فيها

المعروف باسم ابن الجلاء المتوفى سنة ٣٠٦ تلميذ ذى النون المصرى مؤسس التصوف الإسلامى كما سنذكر ذلك فى حديثنا بجزء مصر، وتلمذته لذى النون تجعله أول متصوف شامى بالمعنى الحقيقى. وكان ذوالنون يجمع بين الشريعة وفروضها وبين الحقيقة الصوفية الروحية ، فلا تعارض بين الشرع والتصوف ، بل هما متلاحمان ، وعنه أخذ ذلك ابن الجلاء كما أخذ بقية مبادئه الصوفية من التوكل والحب الإلهى . ويقول ابن تفرى بردى إنه أحد مشايخ الصوفية الكبار ، ويقول مریده وتلميذه الرقى محمد بن داود : « لقيت نيفا وثلاثمائة من المشايخ المشهورين ، فما لقيت أحدا بين يدى الله وهو يعلم أنه بين يديه أهيب من ابن الجلاء » . وعاش الرقى بعده فى الشام إذ توفى بعد سنة ٣٥٠ . ومن مریده وتلامذته فى الشام أبو عمرو الدمشقى المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يقول : « التصوف رؤية الكون بعين النقص بل غض الطرف عن كل ناقص ليشاهد مَنْ هو متره عن كل نقص » يريد تعلق التصوف بالرؤية الإلهية التى يعص فيها المتصوف بصره عن كل ما يشاهده فى الكون أملا فى أن يقنى فى الذات الربانية ، وذكر مترجموه أن له كتابا فى الرد على القائلين بقدم الأرواح .

ومن كبار المشايخ فى الشام أحمد بن عطاء الروذبارى المتوفى سنة ٣٦٩ وهو ابن أخت أبى على الروذبارى شيخ الصوفية فى الفسطاط ، أما هو فكان شيخ الشام فى وقته ، وكان ممن جمع بين الحقيقة وعلم الشريعة . ودخل الشام محمد بن خفيف الشيرازى شيخ المشايخ المتوفى سنة ٣٧١ ومحكى أنه : « دخل مدينة صور وهو جائع عطشان وفى وسطه خرقه المتصوفة ، يقول : فدخلت المسجد ، فإذا شابان مستقبلا القبلة فسلمت عليهما فما أجابانى ، فقلت : ناشدتكما الله إلا رددتما على السلام ، فرفع أحدهما رأسه من مرقعته الصوفية فنظر إلى ورد السلام وقال لى : يابن خفيف الدنيا قليل ومابقى من القليل إلا قليل ، فخذ من القليل الكثير ، فذهب جوعى وعطشى ونصى ( تعبى ) فلما كان وقت العصر قلت له : عطني ، فقال : يابن خفيف : نحن أصحاب المصائب ليس لنا عظة . وربما كان أهم تلامذة أحمد بن عطاء الروذبارى ومریده محمد بن إبراهيم السوسى شيخ الصوفية بدمشق المتوفى سنة ٣٨٦ وكان زاهدا عابدا ماعقد على درهم ولا دينار . وظل كثيرون من العباد والنسك يؤثرون جبال الشام ويقومون بين ربوعها ويذكر المقدسى الجغرافى المتوفى حوالى سنة ٣٧٥ أنه لقي فى جبل الجولان شرق الشام أبا إسحق البلوطى فى أربعين رجلا يقاتون البلوط ، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعر برى ويلبسون الصوف . وينبغى أن نذكر أن المتصوفة كانوا غالبا لا يستقرون فى أوطانهم ، بل يرحلون سائحين للقاء مشايخ

الصوفية ، ومعنى ذلك أن الشام كانت تستقبل كثيرين منهم . وكان يحدث كثيرا أن يتخذوها دار مقام كما صنع الداراني الواسطي وأحمد بن عطاء الروذباري ، وغيرهما كثيرون مثل الحنظلي نزيل الشام المتوفى سنة ٤٥٣ ، وهو أستاذ الهجویری الغزنوی الأفغانی ، وكانت أكثر إقامته بالديار الشامية . ومعنى ذلك أن الشام كانت دائما ساحة كبرى للنسك والتقوى والعبادة .

ومانصل إلى سنة ٤٨٨ حتى ينزل الإمام الغزالي الطومى الصوامع النائية في مساجد بيت المقدس ، وكانت قد انتابته أزمة روحية من الخلافات العنيفة بين الفرق والملل وحتى بين الفقهاء في فروع الشريعة . وقد أوضحنا ذلك في حديثنا عن الزهد والتصوف بإيران في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي وكيف أخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة ، وحمل على فرقة الإسماعيلية الشيعية حملة عنيفة في كتابه « فضائح الباطنية » . وكان قد رأى في موطنه ضعف الوازع الديني عند طوائف الصوفية ، وأن جماعات منهم كانت تُسقط عن نفسها الفرائض الدينية ، بينما كان منهم من يؤمن بالحلول والاتحاد بالله والفناء فيه . وكل ذلك أشعل بينهم وبين الفقهاء حربا شعواء ، وأخذ الغزالي يفكر في كل ذلك على هدى ما كتبه أبو نصر السراج والقشيري في رسالته ، ورأى أنه لا بد من الوصل بين التصوف والشرع ، فلا تصوف بدون الفرائض والنوافل ولا صلاة بدون عمل القلب والإخلاص وصدق السريرة ، وأخذ يؤلف موسوعته الرائعة « إحياء علوم الدين » بقصد تنمية الجوانب الروحية في الفرائض الشرعية وبيان الوسائل إلى ذلك بحيث تصل النفس إلى مبتغائها من محبة الله . وأتم الكتاب في دمشق . واستقبلته استقبالا عظيما لأن متصوفها لم يكونوا قد انحرفوا بتصوفهم إلى مزالقه التي وصفناها في إيران ، بل كانوا دائما يجمعون بين التصوف والشريعة ، إلا من دفعته السياحة إلى ديارهم من متصوفة إيران .

على كل حال كانت إقامة الغزالي بدمشق وبيت المقدس فاتحة التمام وثيق بين الفقهاء والمتصوفة ، وزاد هذا الالتئام توثقا نزول حملة الصليب بديار الشام ، ولعل ذلك ما جعل حكامها التابعين للدولة السلجوقية يأخذون في العناية ببناء الخانقاهات للمتصوفة ، من ذلك بناء دقاق بن تشش لخانقاه الطواويس بدمشق . ودعم هذا التصوف السني عناية نور الدين ثم صلاح الدين وسلاطين الحكم الأيوبي ولساؤهم وأمراؤهم ببناء الخانقاهات والرُّبُط في ديار الشام ووقف الرواتب والأموال التي تنفق على متصوفها عن سعة . وقد عدَّ ابن شداد في الجزء المنشور من كتابه الأعلام الخطيرة الخاص بدمشق خانقاهاتها ووحدها فبلغت تسع عشرة وبالمثل عدريابطاها فبلغت أيضا تسعة عشر رباطا . وكان لا يزال يخرج منها صفوف وجنود لجهاد حملة الصليب . وفي هذه

الأثناء ظهرت بعداد طريقة صوفية سنية هي الطريقة القادرية لمؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ واعتنقها كثيرون لاني العراق وحدها بل أيضا في الشام والبلدان العربية . وتبعها ظهور طريقة صوفية سنية ثانية هي الطريقة الرفاعية لمؤسسها الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ وانتظم فيها كثيرون في العراق والشام وشاعت سريعا في العالم العربي .

ومعنى ذلك أن التصوف السني الجامع بين علم الحقيقة أو علم التصوف وبين علم الشريعة أو علم الفقه وما يتصل به من السنة تداخلت عوامل كثيرة في أن يكون هو التصوف الشائع في الديار الشامية . وحاول التصوف الفلسفي القائم على أفكار الحلول والاتحاد بالله أن يتسرب إلى الشام عن طريق يحيى السهروردي الإيراني ، وكانت له فلسفة صوفية إشراقية ألمنا بها في حديثنا عنه في الفصل الرابع من قسم إيران ، وذكرنا هناك بأنه كان يؤمن بأن النبوات لا تنقطع وأن الحكيم الصوفي من أمثاله أفضل من الأنبياء ، وكفره فقهاء حلب وحملوا الملك الظاهر بن صلاح الدين على قتله ، فقتله سنة ٥٨٧ للهجرة .

وكان من أثر دخول الشعوذة على التصوف ، وخاصة في إيران ، ظهور فرقة بدمشق سنة ٦١٩ تسمى القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف ، لا يتقشفون ولا يتنسكون ولا يصلون سوى الفرائض ، ويحلقون لحاهم ويحاجبهم . وتسرب ثانية إلى الشام جدول صوفي فلسفي زاخر على لسان يحيى الدين بن عربي المولود بمرسية في الأندلس سنة ٥٦٠ وقد تلقى تعاليمه في إشبيلية وفارقها في الثلاثين من عمره إلى المشرق لحج بيت الله الحرام . وظل في مكة فترة ثم بارحها مطوفاً في البلاد العربية ودخل الأناضول « وألقى عصاه بدمشق وبها توفي سنة ٦٣٨ » . وكان إماما في التصوف الفلسفي القائل بوحدة الوجود وصنّف كثيرا من الكتب أهمها الفتوحات المكية والفصوص ، وله غير ديوان ، ومن أهم دواوينه ترجان الأشواق ، وكان شاعرا مبدعا كما كان كاتباً بارعا . وعلى الرغم من اتجاهه الفلسفي في التصوف استطاع أن ينجو من العامة والفقهاء ، فلم يحكموا عليه بالكفر أو الإلحاد كما حكموا على السهروردي ، بل لقد وجد بينهم مريدين كثيرين مماهياً فيما بعد لكي يظل التصوف الفلسفي - على قلة - حياً بجانب التصوف السني ، وكانت عباراته في كتاباته تختمل ظاهرا وباطنا ، ظاهرا مع السنة وباطنا مع التصوف الفلسفي ، وجعل ظاهرها كثيرين يبرئونه من تهمة الإلحاد على نحو ما مر بنا في مصر عند الشعرائي .

واعتنى دولة المماليك بالخانقاهات والرُّبُط وزوايا المتصوفة ، وترصد لها أموالا كثيرة ، مما كان سببا في ازدهار التصوف وازدياد طرقه بجانب طريقتي القادرية والرفاعية السالفتين ، فشاعت فيه

كما مرتبنا آنفا الطريقة القلندرية . ودخلته الطريقة المولوية ، ومؤسسها جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٣ وتبع هذه الطريقة كثيرون . ونزل الشام غنيف الدين التلمساني المتوفى سنة ٦٩٠ وكان صوفيا فلسفيا يؤمن بمذهب وحدة الوجود واحتمله فقهاء الشام فيما يبدو لحسن عشرته .

ولعل فقيها لم يحمل على الصوفية كما حمل ابن تيمية الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٨ . وكان يحمل على أصحاب التصوف الفلسفي . وهذا طبيعي . وحمل أيضا على أصحاب التصوف السني من أتباع الشيخ أحمد الرفاعي لما كانوا يأتون من أعمال شاذة كنفوذهم من النار المضطربة ، وأكلهم الحيات وهي حية ، ولبسهم أطواق الحديد الثقيلة في أيديهم ، ولفهم شعورهم وتليدها . وثار عليهم ثورة عنيفة بدمشق واجتمع الناس إليه ، فذهب بهم إلى نائب السلطان وعرفه ماتصنعه هذه الطائفة من بدع عجيبة ، فأمرهم بالكف عنها . أما أصحاب التصوف الفلسفي وما يتصل به من القول بالحلول ووحدة الوجود فقد أشعل ابن تيمية ضدهم نارا حامية ظل يُذَكِّبها بوقود جزل يزيد لها هبًا واضطرابا ، واصطلى النار الباجريقي محمد بن عبد الرحمن ، وكان قد تزهد وتصوف فصحبه جماعة من الأراذل ، فهوّن لهم أمر الشرائع وأراهم بوارق شيطانية ، وكان يقول لهم : إن الرسل طوّلت على الأمم الطريق إلى الله تعالى « وزعم أنه وصل في سلوكه إلى السماء الرابعة ، وحُكِمَ عليه بإرأقة دمه فاختنق إلى أن مات سنة ٧٢٤ . ودعا إلى مقالاته بعده متصوف من متصوفة خانقاه السمساطية بدمشق يسمى عثمان بن عبد الله الدوكالي ، وشاع أمره فقُبِضَ عليه ، وكان ممن شهد عليه فقيهان كبيران هما المزيّ والذهبي ، فحُكِمَ عليه بالقتل سنة ٧٤١ .

وشاعت في الشام لأواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجري الطريقة النقشبندية ، ومؤسسها محمد النقشبندی المتوفى سنة ٧٩١ . وأخذت تشيع معها لأواخر زمن المماليك الطريقة البكتاشية التي تدين بالنظريات الحلوية ولاتقيم وزنا للسنن والفرائض الدينية وتقديس عليا والأئمة من بعده . ومنذ القرن الثامن الهجري نحس بوضوح أن العامة تخضع لمشايخ الطرق الصوفية بأكثر مما تخضع للفقهاء وعلماء الدين ربما بسبب خضوعهم للحكام بخلاف مشايخ الطرق الصوفية فإنه لم يكن لهم أي تعلق بالدنيا وكانوا يكتفون بما يجرى على خانقاهاتهم من أموال ولم يكن الشيخ يمدُّ يده للحاكم يأخذ منه مالا . وكانوا كثيرا ما يحملون على الحكام إذا رأوهم انخرقوا عن الطريق السوي . وتحول كثير من أتباعهم إلى دراويش يطوفون في العالم الإسلامي ، وكان لهم أثر غير قليل في جفاظ العامة على الروح الإسلامية .

ونغضى إلى زمن العثمانيين فتشط الطرق الصوفية لاهتمامهم بها ورعايتهم لها ، وتشيع معها

الطريقة الخلوتية ، ويعظم أمر الدراويش ويكثرون في العالم الإسلامي . ومما لا شك فيه أنه كانت تكثر الطرق الصوفية المخلصة التي تعنى بالنسك والعبادة ، وإن كان من الحق أنه أساء إلى هذه الطرق الدراويش المتسولون الذين كانوا يتكففون الناس . وهم دراويش رُحّل كانوا يعيشون معيشة مطلقة ، وقد يتحللون فيها من الفرائض الشرعية . وبدون ريب كان بينهم من يتخذ الدروشة خداعا للناس ووسيلة إلى البطالة . ومع ذلك لانعدم أن نجد من حين إلى حين صوفيا حقيقيا يحاول النفوذ إلى معرفة أسرار الكون وخفاياه والتخلص من عالم الحس المادى للفناء في عالم الحقيقة والحب الإلهي ، على نحو ما نجد عند عبد الغنى النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ للهجرة وقد تقلب بين الطرق الصوفية وعكف على دراسة أئمة التصوف الفلسفي وغير الفلسفي ، ولقى كثيرا من شيوخ الصوفية في لبنان وفلسطين ومدن الشام والحجاز ومصر ، وكان شاعرا كما كان ناثرا .